عباقرة الإنشاد الديني

محمد عوض

الكتاب: عباقرة الإنشاد الديني

الكاتب : محمد عوض

الطبعة: ٢٠١٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عوض، محمد

عباقرة الإنشاد الديني / محمد عوض – الجيزة

– وكالة الصحافة العربية.

.. ص،.. سم.

الترقيم الدولي: ١– ١٣٥– ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان ٢٢٩,٢٨ رقم الإيداع: ١٠١٤٠

عباقرة الإنشاد الديني

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

يقدم هذا الكتاب ثلاثين عبقريًا من عباقرة الإنشاد الديني، يرفعون لواءه ويدافعون عنه في عصر أصبح فيه الفن الجميل شيء غريب، وهو عصر العولمة والصورة والسرعة في كل شيء.

ولكن هؤلاء استطاعوا أن ينشئوا هذا الفن الجميل والإنشاد الدني الرائع الذي يؤثر في القلوب ويستثير حماستها، ولما لا والرسول "ﷺ" هو أول من بدأ هذا الفن وابتدعه وأثنى علىه، والمواقف كثيرة ومتعددة، فعندما استقر الرسول في المدينة كان أول شيء يقيمه فيها هو بناء المسجد، وكان وهو يبني المسجد ينشد والصحابة يرددون خلفه، فكان يقول:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة.

فيرد عليه صحابته الكلمة الأخيرة مرتين، وهي الآخرة، الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة، فيوالون خلفه ﷺ والمهاجرة والمهاجرة.

كما أنه كان يشجع الصحابة على الإنشاد في الأفراح، وهذا ثابت أيضًا في الحديث الشريف، عندما طلب من السيدة عائشة –رضي الله عنها– حضور عرس أحد الأنصار وتغني لهم، لعلمه أن الأنصار يحبون الغناء، وعلمها ما تقول، فقال لها قولي:

أتيناكم أتيناكم فحيانا نحيكم.

وهذا ثابت في سيرة ابن هشام.

وهذا الكتاب هو امتداد لهذا الهدى النبوي الشريف، إذ يقدم بعض من اقتدوا بالرسول "ﷺ" في الإنشاد الهادف الذي يبني العقول، ويطرب الآذان، ويرقق القلوب، وفي الوقت نفسه يرضى الله تبارك وتعالى.

فيتناول سيرة المنشدين بداية من سلامة حجازي وأبو العلا محمد مرورًا بسيد درويش وزكريا أحمد وسيد متولي ومحمد محمود الطبلاوي، ونصر الدين طوبار، وأحمد ومحمد الكحلاوي، ومحمد جبريل، وانتهاء بسامي يوسف الإنجليزي المسلم، الذي طور في فن الإنشاد مؤخرًا أيما تطوير.

فحرى بكل مسلم أن يقرأ تاريخ هؤلاء العباقرة، ويتعلم منهم، خاصة الشباب، فدائمًا ما نحتفي بمطربين هذا العصر، والجدير أن نحتفي ونحترم ونوقر من يعمل في أشرف مهنة، وهي الإنشاد الديني، وذكر محاسن الإسلام ورسوله الكريم، والتبتل إلى المولى عز وجل.

كما أن إعلاء هذا الفن والقيمة الدينية أمر يثاب عليه المرء، بعيدًا عن أنغام العشق والهوى التي لا يقبل بها الدين، فضلًا عن أن الخوض في هذا المجال يشجع الناس على ذكر المولى جل وعلى.

ولا يعني هذا أنه لا يوجد من أقحموا أنفسهم في فن الإنشاد الديني، نظرًا لرواجه مؤخرًا على الفضائيات العربية، بقصد الشهرة، وتوجيه الأنظار نحوهم، وبالتالي يسيئون الاختيار غالبًا، فلا ينالون ما يسعون إليه.

ويبقي أن فن الإنشاد بمثابة واحدة من الطرق المستحدثة لتوجيه رسائل إرشادية وتعليمية إلى عامة الناس بشكل غير مباشر، وهو ما نسعى إلى تأكيده من خلال هذا الكتاب.

المنشد سامي يوسف

دعوة إلى الله على ألحان الموسيقى

كثيرًا كان يتعجب البعض أن يجلس في القاعات التي يبتهل فيها رواد الإبتهال أمثال النقشبندي والفشني وطوبار من لا يعرفون اللغة العربية ويجدهم يهزون رؤوسهم معلنين عن المتعة والسعادة والتقدير لم يقول هذا الكلام، وفي ذات الوقت يصرحون بقناعتهم وراحتهم النفسية، التي يشعرون بها جراء الاستماع إلى هذا الكلام، إلا أن الأمر بات ليس غريبًا علينا عندما بدأت الفضائيات تنقل حفلات وتذيع أغاني المنشد أو المطرب سامي يوسف عبر الأثير، وبدأ غير العارفين بالإنجليزية يجلسون ليستمعوا إلى هذا الشاب الداعية العصري.

هو المنشد البريطاني الأنيق الوسيم سامي يوسف ذو اللحية القصيرة المهذبة والقوام الرياضي والهندام الأنيق، بمجرد أن تراه ترتاح عيناك لتلك الفيلا الفاخرة التي يتجول فيها، وستلمس الشاعرية في عمله هو مصور فوتوغرافي، إذن لا شك أنك تتوقع ظهور فتاة جميلة هنا أو هناك لكي يكتمل هذا الفيديو كليب، غير أن هذا الشاب سيدهشك بأنه سيغني أغنية دينية تمدح "المعلم" محمد ﷺ، ورغم أن أغنيته بالإنجليزية إلا أن الجميع يرتاحون لكلماته ويشعرون بالراحة النفسية من سماعها كأن كلماته سحرًا، وهكذا أدهش هذا الداعية العصري مشاهدي الفضائيات العربية، واستطاع بإقتدار أن يبدأ مشوار شهرته في العالم العربي.

سامي يوسف هو شاب بريطاني مسلم ذو أصول أذربيجانية شق طريقه نحو الشهرة بين المسلمين في أوربا والولايات المتحدة، وبدأت تتناوله الإذاعات والصحف

الأجنبية كأحد مشاهير المسلمين في الغرب، بدأ رحلته مع الموسيقى الإنشاد الديني منذ صغره، حيث درس على يد أبيه –الشاعر والموسيقى– المقامات الشرقية، وأتيحت له بعد ذلك فرصة دراسة الموسيقى الغربية بالأكاديمية الملكية بلندن من خلال منحة لا تتاح إلا لصفوة من الموهوبين.

قناعة الإسلام

وعلى طريق النجاح، سار هذا الشاب المسلم الذي اقتنع بإسلامه، وقرر أن يكون داعية لهذا الدين الحنيف اليسير الرافض لكل معاني التطرف، هذا الدين الذي جاء على يد رجل أمي علمه ربه فأحسن تعليمه وتأديبه، فهو المعلم الأول للبشرية جمعاء، هذا الرجل الذي أيقن هذا الفنان الشاب أن التعريف بدوره لغير الناطقين بالعربية ضرورة، وبالفعل بدأ المشوار بنجاح كبير بإصدار الألبوم الأول بعنوان "المعلم" في عام ٢٠٠٣ في أوروبا، وضم هذا الألبوم عدة أغانى دينية قام هو بكتابة كلماتها وتلحينها، وقبل الإعلان عن قدومه إلى المنطقة العربية في عقر دار الإسلام، عقب إبرام بعض وكلاء الحفلات المصريين عقود معه للقدوم للغناء في مصر، كان قد أحرز نجاحات كبيرة على مستوى العالم من خلال حفلات أحياها في بريطانيا وفرنسا والسويد وألمانيا والولايات المتحدة وكندا وماليزيا، ولكن جاءت مصر كمحطة غير عادية بالنسبة له فهي بوابة العالم العربي.

بلا شك، هي مدرسة دعوية إسلامية مستحدثة تتميز بالهدوء، حيث تعتمد على أوتار الموسيقى الهادئة لكي تأتي على شاكلة تلقى إقبالًا من غير العارفين بهذا الدين، بل رغبة في الوصول إلى من شوه الإعلام الصهيوني الإسلام في مخيلتهم كذبًا وتدليسًا وتزييفًا للحقائق، ففي أغاني سامي يوسف جذب قوي لكل الأسماع والأفهام، نتيجة لهذا الامتزاج بين روح شرقية ذات طابع آسيوي وبين روح غربية غير خفية وبين الكلمات الإنجليزية التي تعتمد عليها الأغنيات بالأساس وبين اللوازم العربية من

التهليل والتكبير وأسماء الله الحسنى أو الصلاة على النبي، وهي لوازم يجيدها ويفهمها المسلمون في الغرب بغض النظر عن معرفتهم بالعربية.

تعد أغنيات سامي يوسف اختارت أن تمسك العصا من المنتصف بالنسبة لإشكالية الحكم الشرعي للموسيقى؛ فاعتمدت على آلات الإيقاع فقط وتنوع الإيقاع بين إيقاعات شرقية أو آسيوية أو غربية حتى بعض الخلفيات الموسيقة لأغانيه التي تذكرك بالموسيقى الروحية الغربية جاء تنفيذها عبر أصوات الكورس، إلا أن في أغانيه اهتمامًا بالموسيقى عبر الألحان التي جاء في صالحها المضمون البسيط للأغنيات واقترابها من روح الإنشاد الصوفي والتواشيح والابتهالات في بعض الأحيان.

طريق شرعي

التميز والتفرد في مضمون معظم أغاني سامي يوسف، يقف وراء النجاح الذي أدركه، فالمعاني والألحان مختلفة عما هو سائد وربما ترتب ذلك على الرغبة في تمجيد الذات الإلهية أو مدحًا للرسول ﷺ أو إشادة بالقيم الأخلاقية الأساسية والعامة للإسلام وللإنسانية عامة كالحب والتسامح والإخاء والتعاون والسلام، ولم يحتو على أي مضامين سياسية أو نضالية أو حتى قضايا تفصيلية من تلك، التي تمتلئ بها الأغنيات والأناشيد الدينية المعاصرة، وكل ذلك استطاع باقتدار أن يجتذب الأسماع لهذه الأغاني.

سامي يوسف مطرب يعرف هدفه جيدًا ولا يحيد أبدًا عن الطريق الذي رسمه لنفسه، ومن ثم نجح في اجتذاب الأبصار قبل الأسماع، وهذا طريق شرعي للشهرة في عصر الفيديو كليب؛ فكل ما فيه جذاب ولافت؛ بدءًا من مظهره الشخصي وصوره المنتشرة في شوارع العواصم العربية بشكل كثيف، مرورًا بصورة غلاف الألبوم المصمم بشكل احترافي حاملًا لمسات تجريدية، وانتهاء بالأهم: أغنيته المصورة التي شكل فيها عالم الصورة مجالًا جماليًا موازيًا فتم الاهتمام بصورة بطل الأغنية وصورة مسكنه

الأنيق والباذخ، كما صورت المشاهد الخارجية في أماكن ذات أبعاد جمالية عالية مثل مسجد السلطان حسن بالقاهرة وشوارع راقية ومشاهد ليلية لمخيم في الصحراء، حتى مهنة بطل الأغنية كانت مصورًا فوتوغرافيا عمله هو الاحتفاء بعالم الصورة!

أراد سامي يوسف من خلال الطرب الشرعي الذي يقدمه أن يدلل على معان وقيم إسلامية، فعالم الصورة الذي اعتمد عليه ليس جماليا فقط، وإنما يحمل أيضًا قيمًا معينة فهي صورة تهتم بإبراز حالة من الترف، وهو ملمح درج مشاهير عصر الفيديو كليب على إبرازه، كما أنه –على جانب آخر– أصبح هاجسًا لكثير من الأوساط الإسلامية من خلال التأكيد على أن الإسلام لا يعارض الحياة الرغد ومظاهر الرفاهية الحديثة وفق ضوابط، كما أنه أصبح مصدر انتشار لدعاة وتيارات إسلامية معاصرة قدرتهم على اجتذاب الطبقات فوق المتوسطة والعليا من المجتمع.

تجربة ناجحة

هكذا تعتبر تجربة سامي يوسف المغني أو المنشد تتقاطع إذن مع تجارب تيار الدعاة الجدد من الإسلاميين الذين يتوجه خطابهم إلى الطبقات المتوسطة الصاعدة والعليا، كما يجمعهم الحرص على إبراز ذلك الوجه العصري والحديث "للإسلام"، ويجمعهم الحرص على تفادي السياسة أو التفاصيل والتركيز على الجوانب الأخلاقية العامة والفردية والعاطفية، والتأكيد على التسامح وأهمية التوافق والاندماج في المجتمع والتواجد بجوار الآخرين مهما بلغت حدة الاختلاف، فالدعاة الجدد أصبحت مختلف المحطات الفضائية –لا الدينية وحدها– منبرهم الأساسي، كما أن أغنية سامي يوسف "المعلم" تعرض في الفضائيات العربية المتخصصة في إذاعة الأغاني المصورة على مدار الساعة بلا انقطاع أو ضوابط.

الظروف تغيرت والأحوال تبدلت، وبات أمر الدعوة الإسلامية يستوجب انفتاحًا أكثر مما يراه بعض الشيوخ السلفيين، وربما تكون علاقة المنشد سامي يوسف

والداعية عمرو خالد أحد تجليات هذا العصر، فالشهرة التي نالها هذا المنشد يسأل الداعية خالد عن جزء كبير منها، حيث جرى خالد بما يتمتع به من قبول خاصة في أوساط الشباب على تقديم سامي يوسف للعالم العربي، وذلك بعد لقاءات مشتركة في أوروبا جاءت على شكل لقاءات يحاضر فيها، ثم تختتم الأمسية بإنشاد سامي يوسف، هذا اللقاء بين عمرو خالد المصري العربي وبين سامي يوسف الإنجليزي ذي الأصول الآسيوية يمثل أحد تجليات العولمة الإسلامية.

شعبية جارفة

وبالتالي أصبحت تجربة المنشد سامي يوسف الفنية تتوجه إلى نفس جمهور الإسلاميين الجدد في مصر، جمهور الطبقات العليا والمتوسطة الصاعدة، وهي الطبقات التي يمكنها شراء تذاكر حفلات الأول، كما يمكنها التجاوب مع أغانيه التي تعتمد بصورة أساسية على اللغة الإنجليزية، وهو ما يشير بأنه سوف يحصد شعبية مماثلة لشعبية نجوم الوعظ والدعاة الجدد في نفس الأوساط والطبقات، التي سوف ترى فيه بديلها الفني الإسلامي، الذي يناسب مزاجها العصري، فإنه رغم حداثة سن سامي يوسف وتجربته فقد صار له معجبون وصار للمعجبين نواد خاصة على الإنترنت، شأنه شأن مشاهير النجوم، وإن كانت هذه النوادي ملحقة بمواقع ومنتديات إسلامية، وهي ظاهرة جديدة أن تتواجد نواد على الإنترنت تحمل اسم منشد أو مغن لأغان دينية.

فلا شك أن العديد من الشباب كان ينتظر سامي يوسف ليرى فيه صورة نجمه المفضل الشاب العصري الذي يجمع بين جاذبية نجوم السينما والموسيقى في الغرب وبين دماثة شاب مسلم متدين، أغنيته المصورة تحمل صورة جميلة وعصرية تراوح بين الملامح الغربية والشرقية، وهي صورة نظيفة وملتزمة وتحمل مضمونًا هادفًا وفي الوقت نفسه خفيفًا وعاطفيًا، وربما كان هذا ما وعته حملة الترويج له بين الشباب والفتيات،

فركزت على أنه ينوي الإقامة في مصر لفترة لاستكمال تعلمه اللغة العربية والإسلام، وأنه ربما كان هناك مشروع زواج.

تجربة المنشد سامي يوسف رغم تميزها وحاجة المجتمع الإسلامي لها لتكون البديل عن هذه الأغاني المبتذلة إضافة إلى كونها أغان جديدة ومختلفة، إلا أنها ليست التجربة الفنية الفذة، ولكن يجب أن تكون بداية لثورة فنية إسلامية يقومون عليها كل من يهمه أمر انتشار الإسلام وثقافته المعتدلة في الغرب، خاصة في ظل حاجة المسلمين الأوروبيين لبدائل ثقافية تحمل بصماتهم الإسلامية والغربية معًا، وهذا حق لهم لا يمكن إنكاره.

أحمد التوني

شيخ المداحين المصريين

الإنشاد الديني هو فن غنائي دائمًا ما تجده يتناول موضوعات لها صبغة دينية كالعشق الإلهي، أو مدح الرسول ﷺ، أو الوحدانية والملكوت الأعلى، ومن ثم غالبًا ما تجد آثار هذا الفن واضحة في المجتمعات التي يغلب عليه التصوف وحب آل بين رسول الله تعالى، وربما يؤكد على ذلك جليًا من يلاحظ من غلبة تأثير الإنشاد الديني في صعيد مصر عن شماله، ففي الصعيد يغلب التصوف وتنتشر الأضرحة ومساجد آل البيت، وفي هذه البيئة يكون الإنشاد وليد للرغبة ومعبرًا عن المشاعر والأحاسيس الدفينة، خاصة وأن الغالب على هذا الفن إلى الآن الإرتجال والتطريب.

هكذا هي الظروف البيئية التي تربي ونشأ فيها شيخ المداحين المصريين الشيخ أحمد التوني ابن الخمسة وتسعون خريفًا وصاحب الحنجرة الصوفية الإنشادية العالية الصفاء والنقاء، ليكون بحق أكثر من أحب آل بيت المصطفى وأنشد في حبهم، فكانوا له جمال وروعة في إنشاده ومديحه لهم، فصوته دائمًا يصل محبيه وعشاقه محملًا بعبق المعابد المصرية القديمة، ومشحونًا بروح كهنتها وقدرتهم الفائقة على أسرار النغم، الذي يسمو بالروح لتتجلى في الملكوت، فكلمة "توني" في اللغة الفرعونية تعني نغمي أي من يتجلى فتلين له الأنغام؛ ليصدح بصوت الحكمة.

قرية التصوف

ولد الشيخ أحمد التوني في عام ١٩١٢ بقرية الحواتكة إحدى قرى مركز منفلوط، بمدينة أسيوط جنوب مصر، التي يجمع أهلها رباط الاتحاد والتعاون، وإن اختلفت وجهات نظرهم، حيث يعمل أهلها في ود وتعاون في مجال الزراعة والصناعة، ومعروف عن أهلها انتشار الوعي السياسي والثقافي، إضافة إلى حب آل البيت وغرامهم للتصوف.

قال الأستاذ على باشا مبارك ؟ في الخطط التوفيقية ؟ عن هذه القرية: " الحواتكة قرية كبيرة من مديرية أسيوط بقسم منفلوط، تقع على الشاطئ الغربي للنيل في شرقي الإبراهيمية في جنوب منفلوط بأقل من ساعة، وأبنيتها من أحسن الأبنية الريفية، وفيها قصور مشيدة وبها نخيل وأشجار وجنات، وأطيانها جيدة المحصول، وبها مساجد جامعة ومساجد غير جامعة منها مسجد السلام ومسجد الشيخ حسن المحمدي، ومسجد الشيخ التهامي ؟ وله مئذنة تعد أعلى مئذنة بالوجه القبلي بالصعيد، وبقرية الحواتكة العديد من أضرحة أولياء الله الصالحين، وتقام لهم موالد سنوية، يستقبل فيها أهالي القرية الرواد من كافة أنحاء الجمهورية، وتظل القرية في أفراح طوال أيام الموالد من كل عام".

نشأ أحمد التوني – الذي تربطه علاقة قرابة بالشيخ المبتهل والمنشد الكبير ياسين التهامي– بين الأضرحة المنتشرة في هذه القرية، فكان عشقه منذ الصغر لآل البيت وذكرهم ومدحهم، فالمديح لآل البيت بالنسبة للأطفال في هذا المناخ هو الطرب الأصيل الذي يعشقونه وينتظرونه سواء أثناء الاحتفال بالمولد النبوي أو غيره من الموالد أو أثناء الأفراح بل والأطراح أيضًا، فآل هذه البلدة كانوا يجعلون من المدح النبوي علاجًا لهم من كل داء، شب التوني متشبعًا بأشعار كبار الفلاسفة والمتصوفة المسلمين من أمثال ابن الفارض والحلاج والسهروردي، وكبر على عشق هذه الكلمات.

بداية مبكرة

حفظ التوني ما تيسر له أثناء طفولته من كتاب الله تعالى وأنكب على دراسة المقامات الموسيقية من كبار الموسيقيين، فأتقن المقامات الموسيقية قواعد الإنشاد والابتهال، وقرر أن يسلك طريقه من الصغر حيث بدأ الإنشاد وعمره كان لا يزال صغيرًا عندما كان يعاون أحد منشدي القرية في الليالي التي يتوبي إحياءها، وساعده على الظهور كثرة الموالد التي تقام بقريته الحواتكة حيث كثرة الاضرحة التي يقام لها الموالد ويأتي إليها العشاق والزوار من كل صوب وحدب كضريح الشيخ التهامي حسانين، وهو والد الشيخ ياسين التهامي، وضريح الشيخ أبي الحسن المحمدي، والشيخ عبد رب النبي، والشيخ الحلوي، والشيخ الريدي وغيرهم.

وذاعت شهرة التوني كمشد ديني في كل بر مصر وتهافت عليه الزوار ممن يرغبون في الاستماع إلى فنه الراقي، الذي تهفو القلوب إليه، وأصبح خلال فترة وجيزة أن يكون نجم المديح النبوي الأول في مصر، حتى جاء من ينافسه الشيخ ياسين التهامي ؟ ابن أخته ؟ الذي عشق فن المديح أيضًا وقرر الاستمرار فيه، إلا أنه في ذلك الوقت الذي ظهر فيه قرابة عام ١٩٨٠ كان نجم خاله التوني قد علا، فهو العملاق الذي لا ينافسه أحد له جمهوره العريض وله محبوه في كل مكان من أرض مصر؛ صاحب الدور الكبير في مدرسة الإنشاد الدنني في مصر، وأحد أعلام الإنشاد وصاحب الصوت الدافئ الأجش، الذي يذكر كل من يسمعه بصوت الشيخ زكريا أحمد، وهنا قرر التهامي أن يسلك طريقًا غير الذي يسلكه التوني وهو طريق الإنشاد الفلسفي الصوفي، ويصبح بهذا الأسلوب صاحب مدرسة أخرى هي إحدى مدرستين للإنشاد الدنني.

سيطرة!

ظل الشيخ التوني مسيطرًا على ساحة الغناء الديني "الصوفي" لفترة طويلة من الزمن، حيث وجد نفسه الوريث الوحيد لهذا الفن عن سابقين من أمثال الشيخ الغنيمي والشيخ الشبيتي، وكان الإنشاد في هذه الفترة يأخذ طابعًا عاميًا بسيطًا يعتمد على لحن معين أو نغمة معينة يلتزم بها المنشد ولا يغيرها مع اعتماده في أغلب الأحيان على الكلام العامي، إلا أنه مع بزوغ موهبة الشيخ الأسطورة ياسين التهامي كان لابد من التجديد والبحث عن العمق والإتقان في الأداء، وربما يتضح ذلك جليًا بين قوله في أحد أناشيده القديمة:

رنيت يا كاس قلي سبب رنك رنيت وحدك ولا الهوي رنك

يا ساهر الليل قوم حرص على دنك لحسن يقوموا السهاري يشربوه منك

وقوله في نشيد تخير فيه سبيل التجديد في النص والقضية، حيث يناقش فيه قضية هامة للغاية وهي الفتنة الطائفية التي تنخر في قلب المجتمعات العربية ومنها المجتمع المصري:

الله محبه الكل محبه الدين محبه مدامة قدستها القوم تقديسا

بكر إذا ما انجلت بالكاس تحسبها من فوق عرش من إلاقوت بلقيسا

إلى أن يقول

تحكي الكنائس والرهبان قد عكفوا لدى الصوامع يدعون النواويسا

حيث البطارق والرهبان هاموا في برانسهم يرنمون بتوراة وإنجيل وتقديسا

ورغم السعي الجاد الذي انتهجه التوني وراء التجديد لإحياء دور النشيد الإسلامي، إلا أنه ويشاركه في ذلك التهامي اختيارهما للحفلات الحية إضافة إلى

التسجيلات كسبيل للوصول إلى المستمعين والمعجبين، بعيدًا عن مختلف وسائل الإعلام المتعارف عله كالتليفزيون والإذاعة، ظنًا منهما أن هذه الوسائل لن تخدم مثل هذه الفنون الشعبية التي تؤصل للأخلاق والفكر الإسلامي القويم الذي يناهض التمييز ويرفض شتى صور الصراع والعنف.

فالمديح النبوي لا يزال ضائع المكانة بين المبتذل من الأغاني والفنون على الرغم عظمة أثر هذا الفن على كل من يستمع إليه، فها هو الشيخ التوني في أحد حفلات أمام الباب الأخضر وأمام مقام السيدة وفي ساحة الشباب، ينشد قائلًا: "حرام على قلبي محبة غيركم كما حرمت يومًا لموسى المراضع"، ويقول أيضًا: "أنا بامدح اللي يفوح المسك من قدمه واللي ما يصلي عليه في القلب يا ندمه"، وربما لجمال هذه الكلمات دورًا كبيرًا في تصريح المرحوم الشيخ محمد متولي الشعراوي أكثر من مرة بأنه من عشاق الشيخ أحمد التوني، ليس هذا فحسب بل شوهد أكثر من مرة وهو يستمع إلى مديح التوني في رسول الله ﷺ، حيث كان جالسًا في بلكونة بيته بمنطقة الحسين، وهو يمسك الواحدة على سور البلكونة، وقام وقف حيا الحاضرين.

معنى التصوف

يقول الشيخ أحمد التوني في متناول تعريفه للتصوف: التصوف في معناه القويم الذي هو التوجه إلى الدنا كوسيلة للوصول إلى خير الآخرة، وهي بذلك يصلح لجميع الأديان، فهو فلسفة تصلح للمسلم وللمسيحي، وبعض النصوص الصوفية أخذت من التوراة والإنجيل والقرآن، فالمسلمين دعاة السلام وبالتصوف نفتح ذراعينا للسلام، والأمر بعيدًا للغاية عن السياسة بل دعوة للتصوف، فالتصوف فيه السلام والوئام بين المسلمين وغيرهم من أبناء الديانات الأخرى.

ويوضح التوني أن رأيه في هذا الأمر يستخلصه من قول مشهور لأحد أئمة التصوف في الإسلام وهو الشيخ أبو الحسن الشاذلي، حيث يقول: " يا باغًا روح

السلام بهديه ضل الأنام عن السلام فهاته"، مشيرًا إلى أن السلام الذي يقصده الشاذلي هو السلام في القلوب، السلام في القلب المؤمن.

وعن استعانته بالموسيقى في أعماله مؤخرًا رغم رفضه مسبقًا لها لأسباب شرعية، يرى الشيخ أحمد التوني أن اللجوء إلى الموسيقى كان أمرًا لازمًا، في الوقت الذي بدأ فيه المستمع للمديح النبوي يهرب إلى عالم الموسيقى الصاخبة والفيديو كليب العاري والمبتذل ومن ثم كان التفكير في التجديد لكي نحافظ على عشاق هذا الفن، هكذا قررنا الاستعانة بالموسيقى ولكن بشرط أن تكون موسيقى أدبية، والأمر لا يتعلق بلقمة العيش التي يتكفل بها الله تعالى، ولكن حفاظًا على هذا الفن الآلة، زيادة عن الصفارة والعودة فقط.

أحمد الكحلاوي

مداح الرسول بالوراثة والموهبة

يقول ابن القيم الجوزية: للربّ حقٌ ليس يشبه غيره، ولعبده حقٌ هما حقان لا تجعلوا الحقين حقًا واحدًا، أي: لا تخلطوا بين الحقين، فحق الله تعالى منه أن نعرفه ونعبده وندعوه ونعظمه ونعتقد صفات كماله ونعوت جلاله، أما حق النبي ﷺ فهو تصديقه – فنشهد بأنه مرسل من ربه، ومن كذب برسالته لم يصح إيمانه؛ وذلك لأن معرفة الله، ومعرفة حقوقه، ومعرفة العبادة ومعرفة الإيمان باليوم الآخر، ومعرفة العبادات كلها، إنما جاءت بواسطته، فهو الذي جاءنا بالقرآن، وهو الذي شرح لنا القرآن، وهو الذي علمنا هذه السنة، وعلمنا كيفية الأعمال؛ إذن فله حق على أمته أن يشهدوا له بأنه مرسل من ربه، ثم يشهدوا أيضًا بفضله وبمزيته، وبما أعطاه الله من الفضل وفضّله على الأنبياء قبله.

فالمدائح النبوية ما دامت لم تخرج عن هذا النطاق، فإنها مشروعة، لأنه ما اشتمل من الشعر على الحق فهو حق، وما اشتمل على باطل فهو باطل، ولا شك أن الرسول ﷺ أحق الخلق بكل تعظيم، وليس من تعظيمه أن نبتد عفي دينه بزيادة، أو نقص، أو تبديل، أو تغيير لأجل تعظيمه به وإن كان بحسن قصد فإن ذلك لا يبرر صحة العمل، وكمال محبته ﷺ وتعظيمه في متابعته وطاعته واتباع أمره، وإحياء سنته ظاهرًا وباطنًا، ونشر رسالته التي جاء بها، والدعوة إلها، فإن هذه طريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

والتغني بهذه الأناشيد أمر لا غبار عليه، فالتفنن في مدح رسول الله ﷺ يثبت الإيمان في القلوب وتنشر القيم الإسلامية في العالمين، هكذا هو ما أراده مداح النبي الكبير الذي طالما تغني "لأجل النبي"، فهو حلم أراده والده وتمنى أن يتحقق في ولده، ابن ينشد في مدح رسول الله ليكمل ما بدأه، وبالفعل تحقق ما أراده مداح الرسول محمد الكحلاوي في ولده أحمد، الذي استطاع في وقت وجيز أن يحقق شهرة واسعة، وذلك بإصراره على إنشاء فرقة مصرية للإنشاد الدني، وهذا أيضًا ما سعى والده وراءه أمدًا طويلًا.

هو أحمد محمد مرسي عبد اللطيف وشهرته "أحمد الكحلاوي" الذي يعيش الآن في العقد الخامس من عمره ويتولى مسئولية الإشراف على الفرقة القومية للإنشاد الدني التابعة لوزارة الثقافة المصرية، هذا الفنان الذي اختار أن يسير على نهج والده الأب الروحي للأغنية الدينية العربية، الذي حرص بدوره على دفع ولده لحفظ القرآن الكريم وتعلم قواعد اللغة العربية ودراسة الموسيقى العربية، ليكون مؤهلًا للعمل في مجال الإنشاد الدني.

عشق الإنشاد

كان أحمد منذ الصغر يعشق الغناء الدني وساعده على التميز في ذلك المجال تشربه من خبرة ومهارة والده، فكان الصغير يداوم على الحضور مع والده إلى استديوهات التصوير، ليكمل الدراسة والحفظ بالخبرة العملية لتكتمل الدائرة، وبالفعل تألق الكحلاوي الصغير في تقديم الأغاني الدينية حتى استحق لقب "مداح الرسول" عن جدارة، وسارع إلى تأسيس فرقة ضخمة لتقديم هذا النوع المتميز من الإنشاد.

أحمد الكحلاوي يتحرك بسرعة فائقة صوب جعل هذا الفن ذات قاعدة جماهيرية، لكونه على ثقة بأن استخدام أداة الإنشاد الدني في التحاور والتعاون مع الآخر وسيلة مناسبة تجنب العالم مخاطر الصدام وما يترتب عليه من حروب وعنف

وإرهاب يجتاح كل بلاد العالم، وفي هذا الإطار خاض معارك عديدة ضد من يقولون بحرمة الإنشاد الديني المصحوب بالمعازف والموسيقى.

يرى الكحلاوي أن تحريم الرسول ﷺ للمعازف، لم يكن مقصودًا به الآلات الموسيقية، والدليل على ذلك أن هذه الآلات لم تكن موجودة في أيام الرسول الكريم ﷺ باستثناء آلة الدف، وكان المقصود بالمعازف كل شيء "يعزف" عن ذكر الله ودخول المسجد مثل الحانات والرقص، موضحًا أن الدف مصنوع من الخشب وجلد الماعز والعود والكمان والقانون أيضًا من الخشب والجلد إذن ما الذي يحرم هذه ويحلل هذا؟ كذلك فإن الآلة الوحيدة المحللة هي الدف، وكل راقصات مصر يمتلكن الدف .. فهل معنى ذلك أن عملهن حلال؟

ويخلص الكحلاوي الصغير في كل حواراته ومناقشاته مع علماء الدين ورموز الثقافة المصري إلى أن الآلة الموسيقية ليست هي موضع التحريم، وأن السر في الاستخدام.

تواصل النجوم

وفيما يتعلق بالعلاقة بين المديح النبوي والغناء العادي، يعلن الكحلاوي دائمًا عن رغبته في أن يتواصل نجوم الأغنية العاطفية مع المنشدين والمبتهلين، مشيرًا إلى أن سامي يوسف حدوتة عالمية فهو ظاهرة لأنه لا يجيد العربية ومع ذلك متمسك بالأغنية الدينية فهو متميز كما أنه منتشر في الخارج وفي الداخل.

والآن يجري الكحلاوي بروفات مكثفة مع فرقة الإنشاد الديني التابعة لقطاع الفنون الشعبية والاستعراضية؛ لتقديم "نهج البردة" للإمام البوصيرى على مسرح البالون بالقاهرة، علمًا بأن نهج البردة قصيدة تضم ١٦٠ بيتًا لحنها بالكامل

الكحلاوي مستخدمًا أكثر من لون وإيقاع موسيقي مختلف، ولكن في تناسق هارموني واحد، وهذا العمل أخذ تلحينه وقت ومجهود كبيرين.

ولكن شجع الكحلاوي على المواصلة والإصرار رغبته الملحة في تقديم هذه القصيدة ذائعة الصيت والمعروفة لكل المسلمين، خاصة وأنها قدمت من قبل بصوت كبار المنشدين والمبتهلين في مختلف البلدان الإسلامية، ومن ثم فالأمر بالنسبة له تحد كبير، لأنه يبحث عن التميز بين عمالقة المبتهلين والمنشدين، كما أنه يبحث في ذات الوقت عن السبيل المناسب لتقديم هذا العمل بمستوى يعجب الجمهور ويسعده، ليكون إضافة لفرقة الإنشاد الديني التي من المنتظر أن تقدم هذا العمل الضخم، بمشاركة قرابة ١٢٠ شابًا وفتاةً، منهم العازف والمنشد والمطرب، هذه الفرقة التي استطاعت أن تغير شكل المنشد الديني في مصر، والذي يرشح في ذهن البعض أنه شخص يرتدي جلبابًا وليس له علاقة بفنون الموسيقى فهؤلاء الشباب درسوا المقامات الشرقية والموسيقى وأصولها وأحكام التجويد واللغة العربية، وهم جميعًا من النجوم وأتوقع بروز أكثر من اسم منهم في المرحلة القادمة.

إلا رسول الله

والإنشاد الديني في نظر أحمد الكحلاوي فن يواكب الأحداث ويستطيع أن يكون له رسالة إعلامية وثقافية واجتماعية هادفة، وأنه لوحظ مؤخرًا الدور الإيجابي الذي لعبه أوبريت "إلا رسول الله" ردًا على الإساءة إلى الرسول الكريم، كما أنه لدى المسلمين إنشاد ديني لمواجهة الإرهاب والفتنة الطائفية، وكل ما يحدث من تصرفات لا يقرها الدين والإسلام منها براء، ومادة الإنشاد هي المدائح النبوية من الأشعار والقصائد التي قيلت وتقال في رسول الله ﷺ مشروعة.

بل إن الإنسان، في نظر الكحلاوي، ليؤجر عليها إن أحسن القصد في ذلك، خاصة وأن الشعراء من الصحابة كانوا يمدحون رسول الله ﷺ ويدافعون عنه، ويهجون المشركين، وهو يسمع، مشيرًا إلى أنه ذات مرة قال الرسول ﷺ لحسان بن ثابت كما في الصحيحين: " يا حسان أجب عن رسول الله، اللهم أيده بروح القدس"، لكن يشترط ألا تحتوي هذه المدائح على باطل من غلو في رسول الله يجاوز الحد المشروع، والغلو الذي نعنيه هو مجاوزة الحدّ المعقول والمفروض في العقائد الدينية والواجبات الشرعية.

ويشدد الكحلاوي دائمًا على أنه من مظاهر الغلو في حب الرسول ﷺ الاستغاثة به، أو ترديد ألفاظ العشق ونحوها، مما لا يليق نسبته إلى رسول الله ﷺ، وقد حذر ﷺ أمته من الغلو عمومًا، فقال: "إياكم والغلو، فإنّما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين"، كما أن لجوء المطربين للغناء الديني هذه الأيام، يراه موضة كان سعيد بها في أول الأمر، إلا أن ما أحزنه مؤخرًا، أن بعض المطربين يتغنون بالأغاني الدينية، ثم يعودون مرة أخرى إلى أغاني الـ"فيديو كليب" المليئة بالراقصات، وهو في ذلك يدعوهم إلى تقوى الله فيما يقدمونه ويصدقوا مع أنفسهم، وليس مجرد ركوب الموجة والغناء على الموضة.

دائمًا يعلن أحمد الكحلاوي عظيم الشرف، الذي يشعر به كونه ابن للفنان الكبير محمد الكحلاوي، إلا أنه يؤكد مدى الظلم الذي يتعرض له جراء المقارنة بينه وبين والده نظرًا لاختلاف الظروف وتطور الموسيقى وظهور تقنيات حديثة غير تلك المستخدمة في عهد والده من الممكن أن تستخدم للنهوض بفن الإنشاد الديني، كذلك يعيب على البلدان العربية عدم استغلالها لسلاح الفن لمخاطبة الآخر والتحاور معه، نظرًا لضعف هذا الفن العريق الذي يقيد حركته الروتين واللوائح الإدارية، التي من الواجب أن تتغير، وليكسر لرفع أجور الفنانين من أعضاء الفرقة والاهتمام بهم، خاصة

أن فرقة الإنشاد الديني تواكب في عروضها كافة الأحداث التي تمر بها البلاد، وربما يعاني هذا الفن الضعف لعدم اهتمام التليفزيون به.

الشيخ أبو العلا محمد

مجدد مدرسة الابتهالات والتواشيح الحديثة

إن نظرة شاملة سريعة إلى المسار التاريخي لتطور الموسيقى العربية المتقنة تكشف عن ثنائيتين متلازمتين حكمتا هذا المسار حتى العصور الحديثة، أولهما، تلازم الموسيقى والغناء، فالنتاج الرئيسي لتأليف الموسيقى الجادة المتقنة في الحضارة العربية كان يعبر عن نفسه بالتلحين للصوت البشري، جماعيًا كان أم فرديًا، حيث إن تاريخ الموسيقى العربية هو نفسه تاريخ الغناء العربي، أما الثنائية الثانية، فهي تلازم الغناء العربي بالقصيدة الفصحى، فإنه رغم أن الحدود بين العامية الحجازية ولغة العرب، كانت متداخلة في صدر الإسلام، إلا أن القصيدة الفصحى بقى لها مركز الصدارة في الغناء العربي المتقن وبالرغم ظهور اللهجات المحلية، التي اقتصرت على الغناء الشعبي "فولكلور".

ومع أن الموشح قد عاد في العصر الأندلسي إلى تضييق الهوة بين الفصحى والعامية، مستنبطًا لونًا لغويًا غنائيًا يبسط الفصحى ويتلاعب بها في مزيج غريب بينها وبين اللهجات المحلية، فقد بقيت القصيدة الفصحى، حتى في عز ازدهار فن الموشح، في مركز الصدارة في الغناء العربي المتقن، حتى أن عددًا لا بأس به مما وصلنا من الموشحات القديمة، وما تم تلحينه من الموشحات في القرنين الأخيرين، فيما بين حلب والقاهرة، وألوان المألوف السائدة في بلاد المغرب العربي، كامتداد لفنون الموسيقى والغناء الأندلسيين.

إن هذا التراث من الموشحات ظل يعتمد إلى حد كبير على القصيدة العربية الفصحى، إلا أن الأمر اختلف في عصور الانحطاط التي فصلت فيما بين العصور الذهبية للحضارة العربية والقرنين الأخيرين، فلم يكن الشعر العربي وحده هو الذي يتدهور، بل إن التدهور لحق كل نشاط عربي حضاري، وعلى رأس ذلك فنون الموسيقى والغناء، ولكن من الثابت أن الفراغ لم يكن كاملًا في تلك العصور، فكما حفظ لنا القرآن الكريم لغتنا العربية في فلك أشبه بفلك نوح ظل عائمًا على أمواج بحور الانحطاط وحتى أوصلها إلينا بكامل رونقها وبهائها في العصر الحديث، فإن تجويد القرآن الكريم، والتواشيح والأناشيد الدينية، قد حفظت الكثير من ثروة المقامات العربية والإيقاعات العربية جسرًا بين العصور الذهبية والعصر الحديث، مرورًا فوق عصور الانحطاط.

مركز الصدارة

لكن هذه الأسباب التي استعرضناها بلمحة خاطفة،لم يكن غريبًا أن تعود القصيدة الفصحى إلى مركز الصدارة، عندما عادت روح النهضة تدب في الإقليم العربي الأوسط "مصر"، وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولاشك بأن القصيدة الغنائية كان لها من بين فرسانها الكثير في القرن التاسع عشر، فارسان مجليان هما عبده الحامولي في وصلات الطرب الغنائي، وسلامة حجازي في مسرحياته الغنائية.

أما الشيخ أبو العلا محمد فتولى التجديد وتسلم شارة القيادة من سابقيه، ليقوم بسد الثغرة الكبيرة التي تركها سيد درويش في مهمته التحديثية الكبرى في حين أطلق لعبقريته ولروحه الوثابة والعنان في كل مجالات الموسيقى والغناء العربيين، ما عدا مجال القصيدة الغنائية، فلم يكن تصديه لأداء هذا الدور منطلقًا من فراغ، فهو إلى جانب اتصاله العميق بأساليب تجويد القرآن الكريم والابتهالات والتواشيح الدينية،

فقد كان يعمل مذهبجيًا في فرقة عبده الحامولي، أي أنه كان بلغه العصر الحديث عضوًا في الكورس الذي ينشد وراء كبير مطربي القرن التاسع عشر.

ويبدو أن الشخصية الوقورة للشيخ أبو العلا هي التي دفعته إلى أن يحصر اهتمامه الفني بالقصيدة الغنائية، دون سائر ألوان التراث الهائل للغناء العربي في القرن التاسع عشر، وقد كان ذلك من حسن حظ تطور الموسيقى العربية، فخدمات أبو العلا محمد في هذا الحقل، إذا نظرنا إليها الآن في الإطار العام لتراث القرن العشرين وكما تؤهل هذا الشيخ المغني إلى أن يحتل موقع مؤسس فن القصيدة الغنائية العربية في القرن العشرين، وذلك عبر أداء عدة مهمات تأسيسية.

تسجيل التراث

قام الشيخ أبو العلا محمد بالإفادة من ظهور عصر التسجيل على إسطوانات، ليسجل بعض أهم قصائد عبده الحامولي بصوته، فيحفظها من الاندثار، وأهم هذه القصائد قصيدة "أراك عصي الدمع" للشاعر أبي فراس الحمداني، مما دفع عددًا كبيرًا من مطربي مطلع القرن العشرين إلى تسجيل هذه القصائد بأصواتهم، حتى أن هذه القصيدة لها أكثر من عشرة تسجيلات مختلفة بأصوات أكثر من عشرة مطربين ومطربات، كذلك انصرف الشيخ أبو العلا إلى تلحين عدد كبير من القصائد على النمط التقليدي المتجدد الذي أطلقه عبده الحامولي، ويكفي للدلالة على التواصل الدقيق بين قصائد الحامولي وأبو العلا محمد، وقدرة التلميذ على مجاراة أستاذه في الأسلوب كما في المستوى، المقارنة بين لحن الحامولي لقصيدة "أراك عصي الدمع" ولحن أبو العلا محمد لقصيدة "وحقك أنت المني والطلب"، فكأنهما لملحن واحد.

كذلك كان للشيخ أبو العلا واحدًا من اثنين كان لهما الفضل في الاكتشاف المبكر لموهبة أم كلثوم، وإقناع والدها بالانتقال بها من الريف إلى القاهرة وفي تحولها من الإنشاد الديني إلى احتراف الغناء، والثاني هو زكريا أحمد، وبعد ذلك تولى الشيخ

أبو العلا من العام ١٩٢٣ عام انتقال أم كلثوم إلى القاهرة، وحتى عام ١٩٢٧ عام وفاته تدريب أم كلثوم على أداء فن القصيدة الغنائية بشكل خاص، فحفظت منه وسجلت بعد ذلك على إسطوانات ألحان قصيدتي الحامولي "أراك عصي الدمع" ثم "أكذب نفسي"، ثم سجلت من ألحانه مجمعة من القصائد التقليدية "على طريقة الحامولي" أشهرها "وحقك أنت المني والطلب" و"الصب تفضحه عيونه".

وهكذا، فإن المشهد العام لفن القصيدة الغنائية العربية في الربع الأول من القرن العشرين،كان يتألف من خطين متوازيين متكاملين، خط القصيدة التقليدية، المؤسسة على أسلوب تجويد القرآن الكريم، وأسإلب التواشيح الدينية، مع الاعتماد على إيقاع هاديء يسميه المحترفون إيقاع الوحدة الكبيرة، مع مراعاة بناء لحن القصيدة الواحدة على مقام أساسي واحد البياتي أو الهزام أو سواهما، مع السماح بتلوينات مقامية عابرة، ولكن مع التزام صارم بأن تعود قفلة القصيدة إلى مقامها الأساسي في المطلع، ولاشك بأن صاحب الاسم الأبرز والفضل الأكبر في هذا الخط بالذات هو الشيخ أبو العلا محمد.

والخط الثاني هو خط القصيدة التقليدية ذات النكهة المسرحية، التي قد تشبه القصيدة التقليدية العادية في كثير من الأحيان، ولكنها تختلف عنها أحيانًا باحتواء مقاطع مرسلة من غير إيقاع،ومحاولة التعبير الدرامي أو الرومانسي بما تفرضه المشاهد المسرحية لهذه القصائد، ولاشك بأن فارس القصيدة الغنائية العربية المجلى بعد هذين المؤسسين محمد عبد الوهاب،غرف كثيرًا من ينبوعي أبو العلا محمد وسلامة حجازي، قبل أن يفجر ثورته الكبرى في تلحين القصيدة الغنائية العربية الحديثة.

الميلاد والنشأة

ولد أبو العلا بن محمد بن حافظ، حفيد الشيخ العدوي من ناحية الأب، والأمير حسن كتخدًا من ناحية الأم في الثامن من شهر أغسطس عام ١٨٧٨ في قرية

بني عدى التابعة لمركز منفلوط محافظة أسيوط بوسط الصعيد، لمولود الجديد هو أبو العلا، فكان مولده لأسرة عريقة مشهور عنها الحسب والنسب، ومن ثم حرص والده على إلحاقه بكتاب القرية ليحفظ القرآن تمهيدًا للتقدم بأوراقه إلى الأزهر.

وبالفعل حفظ الشيخ أبو العلا محمد القرآن الكريم وهو لا يزال سنه لا يتعدى عشر سنوات، وسرعان ما ألحقه والده بالأزهر الشريف ليكمل تعلمه، واشتهر بين أقرانه بالصوت الحسن وإلقاء الشعر، فكانت بدايته مع حفظ القرآن والتعليم بالأزهر إلا أن حبه للشعر وعشقه للغناء وإلقاء القصائد والأناشيد الإسلامية دعته يتحول إلى فن الغناء والإنشاد الديني، ونبغ نبوغًا تامًا في إلقاء القصائد على طريقة عبده الحمولي، الذي عني بتقليده فيها وفي سائر أغانيه الساحرة، وقد تخرج على يديه عدد كبير من كبار مطربي عصره وعلى رأسهم سيدة الغناء العربي أم كلثوم، وذاعت شهرته بين مشاهير الطرب في عصره، وقام بتلحين مجموعة من القصائد الشعرية الدينية لكبار الشعراء، وسجل بصوته نخبة من القصائد والأغاني على إسطوانات.

وعلى محطة قطار السنبلاوين بمحافظة الدقهلية، قال القدر كلمته عندما شهدت المحطة لقاء الطفلة الصغيرة أم كلثوم مع ووالدها مع الشيخ أبو العلا محمد وكان ذلك اللقاء بدون موعد سابق، فخلال تواجد أم كلثوم مع والدها على محطة القطار لمحت الشيخ أبو العلا محمد فأسرعت إليه وصافحته، وطلبت منه الذهاب معها إلى منزل الأسرة بقرية "طماي الزهايرة" التابعة لمركز السنبلاوين.

وبالفعل ذهب معها وعندما استمع لصوتها قال لوالدها: حرام عليك أن تحبس هذه الموهبة في قرية صغيرة ونصحه بالانتقال إلى القاهرة عاصمة الفن والشهرة وبالفعل استجاب الشيخ إبراهيم السيد البلتاجي لنصيحة الشيخ أبو العلا محمد، واستقرت الأسرة في القاهرة، ولم يبخل الشيخ أبو العلا محمد على السيدة أم كلثوم بفنه وتجاربه، وغنت بلحنه في أول قصيدة تشجى بها لشاعر الشباب أحمد رامي،

وتحت "الصبي تفضحه عيونه"، وذلك في عام ١٩٢٤ ميلادية، وفي عام ١٩٢٦ غنت قصيدة "وحقك أنت والمني" أشعار الشاعر الشيخ عبد الله الشبراوي، وتواصل العطاء الفني بينهما بعد ذلك.

الأسرة والحياة

رزق الشيخ أبو العلا محمد من الأبناء بولدين وست بنات، وكان ابنه الدين جلال الدين أبو العلا يرغب في الزواج من أم كلثوم، ولكن لم تتحقق رغبته، لعدم اتفاق الطرفين على هذه الزيجة.

لم يكن هذا الفنان المبدع أقل بؤسًا من زملائه السابقين في ختام حياته، لقد كسب أموالًا طائلة من تسجيل قصائده لدى شركات التسجيل وذاع صيته بما أخرج من ألحان ساحرة، ولكنه كان مسرفًا شأن أهل الفن القدامى، ليس هذا فحسب بل أُصيب في أخريات أيامه بالشلل في ساقيه ولسانه، فأعجزه ذلك عن الغناء والتلحين مما جعله يبكي بكاءً مرًا، لأنه حرم من أعظم متعة له في حياته وهي الغناء، لقد كان يبكي لعجزه عن الغناء أكثر مما كن يبكي لبؤسه وفاقته، ولم يكتف القدر في قسوته على هذا الفنان، فقد أُصيب أيضًا بمرض السكر.

وكان الشيخ أبو العلا محمد يحب الحلوى كما يحب الغناء، فعز أن يقسو عليه القدر على هذا النحو، فأراد أن يعاند القدر ولو على حساب حياته، إذ اشترى كمية كبيرة من الحلاوة الطحينية وأكلها خلسة مما زاد في وطأة مرض السكر عليه فقضى بعد ذلك بأيام، قضى منتحرًا بالحلاوة الطحينية التي كان يحبها، وكان ذلك في الخامس من شهر يناير عام ١٩٢٧، فاضت روحه إلى بارئها، وشاركت أم كلثوم في جنازته وودعته إلى مثواه الأخير، وفي احتفالية إحياء ذكراه بصوت يتمزق ألمًا، وهي تزرف الدموع مجموعة من ألحان أستاذها الشيخ أبو العلا محمد، وفي هذه الاحتفالية قال شاعر الشباب أحمد رامي مرثية، نذكر منها:

كان شعري فيك للغناء

فغدا إلوم في فمي للرثاء

من معيني على افتقادك

يا من كنت عوني على الآسى والبكاء

عز دمعي علىك يوم نعي

الناعي أعز الأحباب والأصفياء

الشيخ إمام عيسى

فنان شجاع ترك الابتهال لمناهضة السلطة

علم فني يراه البعض بمثابة ظاهرة سياسية وفنية غنائية شهدتها مصر منذ الستينيات، حيث استطاع أن يشكل بتلازمه مع الشاعر "أحمد فؤاد نجم" ظاهرة فريدة وجديدة على المستوى الفني والأدبي؛ فكان الاثنان كلمة الشعب وصوته ولحنه، وألمه وأمله؛ فقد كونا ثنائيًا رائعًا لا مثيل له؛ فبما امتلكه الشاعر "نجم" من مقدرة على النقد بالكلمة، وبما امتلكه "إمام" من مقدرة على تنغيم النقد وتلحينه وجعله أغنية يتغنى بها الشعب ويسخر بها من حكامه وظالميه، قادًا عبر سنوات طويلة صوت الشارع وضميره، فكانا الثنائي الذي لم يتكرر؛ لما به من امتزاج كامل بين الغناء والسياسية، والفنان والشاعر، والواقع والناس .. هو إمام محمد أحمد عيسى وشهرته الشيخ إمام.

ولد الشيخ إمام عيسى في الليلة الثانية من شهر يوليو عام ١٩١٨م بقرية أبو النمرس بمحافظة الجيزة المصرية، لأسرة فقيرة يغلب عليها الميل إلى التصوف والزهد، فوالده كان من المعروفين بالقرية بتصوفه وكانت والدته سيدة بسيطة، اعتادت أن تنجب البنين ثم تفقدهم على أثر الولادة بشهور، إلا أن إمام كان أول فرحتها من البنين فهو من يعيش لها من الذكور، إذ مات منها قبله سبعة من الأبناء، إلا أنه على الرغم من خوفها وحرصها عليه إلا أنه أصيب في السنة الأولى من عمره بمرض الرمد الحبيبي، ولتدني الخدمات الصحية في هذه الآونة فقد الطفل بصره، إثر استخدام والدته لوصفة شعبية في علاج مرضه.

حرص والد "إمام" على دفعه منذ طفولته إلى حفظ القرآن الكريم وتجويده، حيث كان يحلم والده بأن يكون ابنه شيخًا؛ لذا كان كثيرًا ما يقسو عليه، أما والدته فكانت نبع الحنان له، حيث اختلطت أمومتها بعقدة الذنب؛ كونها تسببت في فقدانه لبصره، لتُفجِّر تجاهه ينابيعَ المحبة والحنان، فكانت تخاف عليه، وتصطحبه معها إلى الأفراح والمناسبات الاجتماعية، وبما تمتع به من ذاكرة قوية، كان يلتقط بأذنه ما كانت تقوله النسوة من أغان في الأفراح والحج، ومن أهازيج البنات وهن ذاهبات لملء الماء، فكان يرى الدنيا بإذنه، فمال من صغره إلى جرس الكلمة وجمال الأداء، إضافة إلى ما أكسبه القرآن الكريم وعلم التجويد له من ضبط لإيقاع الكلمات ومخارج اللفظ.

محمد رفعت المعلم

هكذا، تفتحت أذن الشيخ الصغير الكفيف مبكرًا على صوت كروان السماء الشيح "محمد رفعت"، فكان يحرص دائمًا على الذهاب إلى مسجد "فاضل باشا" بدرب الجماميز بالقاهرة، حيث "الشيخ رفعت" يقرأ القرآن الكريم، وعندما سمعه يصلي ويقرأ القرآن بصوت جهور أعجب "الشيخ رفعت" به ودعا له، وعندما أكمل إمام الثانية عشرة من عمره، اصطحبه والده عام (١٩٢٩م) إلى القاهرة للدراسة بالجمعية الشرعية السنية بحي الأزهر، وعُرف عنه في تلك السن جمال الصوت والأداء والقدرة على الإنشاد، فقضى في الجمعية بالقاهرة أربع سنوات، أتم خلالها حفظ القرآن الكريم، وأصبح يلقب بـ"الشيخ إمام" من حينها وحتى وفاته، وفي تلك الفترة بدأ تعَرُّف إمام على السياسة، فكان يندس في مظاهرات الأزهريين ضد الملك والإنجليز، ويستمع إلى هتافاتهم.

لكن انشغال الشيخ إمام بالسياسة دفع القائمين على إدارة الجمعية الشرعية التي كان يقيم في مقرها بالأزهر؛ وبناء على بعض الوشايات، إلى طرده ورفض

السكني بمقرها، وكان قبلها حُرم من عطف مؤسس الجمعية الشرعية الشيخ محمود خطاب السبكي عليه؛ نظرًا لوفاته، حيث كان يعطف على إمام عطفًا كبيرًا، وهكذا أضاف طرده من الجمعية الشرعية، مأساة إلى مأساته، فلم يجد ملجأ يأوي إليه إلا مسجد الحسين الشهير يعايش فيه الصوفية والدراويش، وعندما عرف والده بما جرى له ذهب إليه وأهانه وضربه وهدده إن عاد إلى بلده أبو النمرس مرة أخرى، وكان ذلك آخر لقاء له بوالده، حيث توفيت أمه بعد عشرة أيام، ولم يستطع أن يذهب ليشهد جنازتها، ولم يعد لقريته قط إلا بعد وفاة أبيه.

كان الشيخ إمام عيسى يتردد على حي الغورية بالحسين، وفي حارة تسمي "خوش قدم" أو "قدم الخير" وتعرف على مجموعة من أهل قريته أبو النمرس، الذين اعتنوا به، فأخذ يتلو القرآن الكريم في الدكاكين والبيوت، وينشد في الأفراح، وحفلات الطهور والسبوع، والموالد، وشاءت الأقدار أن يلتقي إمام بالشيخ "درويش الحريرى" الذي كان يعد أحد أساطين وعلماء الموسيقى في ذاك الوقت، فاستمع الحريرى إليه وهو يتلو القرآن، وأعجب به إعجابًا شديدًا، وأصر أن يعلمه أصول الموسيقى والطرب، فدرس على يديه الموشحات، ومنه بدأ في تعلم الموسيقى العربية، فخَبِر مقاماتها ودروبها، واصطحبه الشيخ الحريرى إلى جلسات وليالي القراءة والطرب، وهناك صُقلت موهبته وذاع صيته، وتعرف على كبار المطربين والمقرئين، أمثال الشيخ "زكريا أحمد" والشيخ "محمود صبح".

دراسة الموسيقى

وفي منتصف الثلاثينيات، اشترك الشيخ إمام في اجتماع لمجموعة من المكفوفين كان من ضمنها المطرب والملحن سيد مكاوي، وكان إمام عاشقًا لألحان الشيخ زكريا أحمد، وتعرف عليه عن طريق الشيخ درويش الحريرى، فتقرب منه وانضم

إلى بطانته، واستعان به الشيخ زكريا في حفظ الألحان الجديدة واكتشاف نقاط الضعف بها، حيث كان "زكريا أحمد" ملولًا، لا يحب الحفظ، فاستمر معه إمام طويلًا، وكان يحفظ ألحانه لأم كلثوم قبل أن تغنيها، وكان إمام يفاخر بهذا في جلسات الأنس فيغنيها لأصحابه، ولما بدأت الألحان تتسرب إلى الناس قبل أن تغنيها أم كلثوم، وعرف الشيخ زكريا بهذا وعلى الفور قرر الاستغناء عن الشيخ إمام.

قرر الشيخ إمام عيسى بعد أن استغنى عنه الشيخ زكريا أحمد أن ينتقل من حفظ الألحان إلى تعلم العزف على العود، خاصة بعد ما سمع عن عازف عود كفيف؛ فذهب ليتعلم منه العود، واستفاد من دروس الموشحات مع شيخه درويش الحريرى، وعندما استمع للعازف الكفيف كان يظن أن العزف هو الذي أوجد الطلب على ذلك العازف، فاشترى إمام عودًا وتدرب عليه، وألف بعض الأغاني البسيطة جدًا ولحنَّها وغنَّاها، لكن محاولاته في الكتابة لم تستمر، وفي تلك الفترة هجر إمام الاشتغال بقراءة القرآن.

وفي عام ١٩٦٢م، التقى الشيخ إمام بالشاعر أحمد فؤاد نجم، فكان اللقاء التاريخي الذي جمع ثنائي فني رائع يكاد يقال إنه ثنائي متفرد في التاريخ المصري، وكان بمثابة بداية التحول في مسار الشيخ أمام الغنائي، وتهيئته لكي يتم تحميل صوته وألحانه بالكلمات والأغاني السياسية، التي جرَّت عليهما الكثير من المتاعب، وفي المقابل طيَّرت شهرتهما في الآفاق، وكانت بداية التعرف بينهما أن ذهب "أحمد فؤاد نجم" والتقى بإمام في مسكنه وأعجب كل منهما بالآخر، وبدأت الشراكة الفنية والحياتية بينهما، فترك "نجم" سكنه وانتقل ليسكن بجوار صديقه الجديد.

كان نجم يتمتع بعلاقة جيدة في أوساط الأدباء والصحفيين والإعلاميين، وساهمت دائرة معارفه في تعريف المثقفين بإمام وتقديمه إليهم، وكانت بداية أعمالهما أغاني عاطفية، مثل: "أنا أتوب عن حبك أنا؟" و"عشق الصبايا" و"ساعة العصاري"،

ثم انضم إلهما شخص ثالث هو "محمد على" كعازف للرق، وأصبح الثلاثة فريقًا فنيًا متميزًا، لكن السياسة لم تكن حاضرة في بداية هذه الشراكة الفنية.

الهروب إلى ساحة الحرب

وفي هذه الأثناء التي تلت قيام ثورة الضباط الأحرار في يوليو، حيث كانت الغالبية في مصر والعالم العربي تحلق بعيدًا في ظل المشروع القومي، وكانت كاريزما عبد الناصر حاضرة بقوة وغير قابلة للنقد أو المناقشة، جاءت الهزيمة الكبيرة لمصر والدول العربية في يونيو ١٩٦٧، فحطمت الكثير من القناعات والطموحات، ومن ثم بعد الهزيمة أصبح للشراكة بين إمام ونجم معنى آخر، وكانت لغة الحزن والرفض والألم هي الحاضرة في الشراكة الجديدة إلى جانب السياسة، وكانت البداية أغنية ساخرة من الهزيمة النكراء وما جرى فيها، وكيف لم يستطع حماة الوطن أن يحموا حتى أنفسهم، فكانت أغنية "الحمد لله خبطنا تحت بطاطنا.. يا محلى رجعة ظباطنا من خط النار" و"وقعت من الجوع ومن الراحة.. البقرة السمرا النطاحة"، "مصر يا أمة يا بهية.. يا أم طرحة وجلابية".

استطاعت أن تخلق الهزيمة مناخًا ملائمًا لنجاح أغاني الشيخ إمام، التي حملت نقدًا وسخرية من المتسببين في الهزيمة، فانتشرت تلك الأغاني، وأصبحت حديث قطاع من المصريين، ورددتها الألسنة داخل وخارج مصر، ولم تنجح محاولات استيعاب الشيخ إمام والشاعر فؤاد نجم، وأصبح إمام وفرقته الثلاثية ضيوفًا شبه دائمين على بعض المظاهرات التي شهدتها مصر في تلك الفترة، وخاصة عام ١٩٦٩م بعد صدور أحكام مخففة على قادة سلاح الطيران، والذي دمر بالكامل ودمرت طائراته على الأرض بفعل المباغتة الإسرائيلية، وتم القبض على إمام ونجم وقدما إلى المحاكمة بتهمة تعاطي المخدرات، لكن القاضي أفرج عنهما بكفالة.

نجاة الشيخ إمام وفؤاد نجم من دخول السجن لعدة سنوات جراء هذه التهمة الملفقة لهم، التي تم القبض عليهم بناءًا علها، لم تصب السلطة بالعجز فقامت باعتقالهما، وحكم على الاثنين بالسجن المؤبد، والتهمة كانت محاولة قلب نظام الحكم وإثارة الجماهير، وفي هذه الأثناء كانت السجون المصرية عامرة بآلاف السجناء السياسيين سواء كانوا من الإخوان المسلمين أو الشيوعيين أو أي اتجاه آخر له وجهة نظر تخالف النظام القائم، ناهيك عن الأبرياء الذين قادتهم الأقدار إلى السجون بدون ذنب أو جريرة.

وفي سجن القلعة الرهيب الذي يعج بآهات المعذبين بدأت حكاية جديدة للشيخ إمام، فالرجل رغم أنه كان كفيف البصر إلا أن صوته العذب، ونشأته الدينية وأخلاقه المتسمة بالبساطة –نظرًا لحياته في حي شعبي– قادته إلى أن يكون صداقات مع السجانين، وأن يروض تلك الوحوش الآدمية وأن يقترب منها دون أن تنهشه أو تعتدي عليه، وفي السجن بدأت شهرة إمام ونجم تنتشر بين هؤلاء المساجين السياسيين، الذين تفاعلوا بقوة مع تلك الأغاني، ولسان حالهم يقول إن السخرية من الجلاد تتساوى مع السياط التي ألهب بها ظهورهم.

سجناء السياسة

كان الشيخ الضرير يذهب إلى الحمام في الربع ساعة اليومية المخصصة لذلك، فيتلكأ عند زنزانة نجم، ويسمع ما لدنه ويحفظه، ثم يعود ليلحنه ويغنيه لنجم في المرة التالية، وهكذا استطاع الاثنان تإلف وتلحين الكثير من الأغاني، فكان في بعض الأحيان يمتلك قدرًا من الشجاعة، فيضع فمه على فوهة الزنزانة، ثم يشدو ببعض أغانيه ليجد أن السجناء السياسيين يرددون معه، وكان بأغانيه يتمرد على قائمة الممنوعات التي تملأ لوائح السجون خاصة إذا كان السجناء من السياسيين، ولعل

قصيدة "الممنوعات" تشرح بعضًا من معاناة الوطنيين والأحرار في ظل السلطة المستبدة.

هكذا تنقل الشائي الساخر بين عدد من السجون المصرية، وأسمعوا فنهم ونقدهم للمعتقلين في تلك السجون، وعندما فقدا الأمل في الخروج من غياهب السجن، جاء الأمل لآلاف المعتقلين مع وفاة "جمال عبد الناصر" عام ١٩٧٠، فكانت بمثابة طوق النجاة لهما ولغيرهما في الخروج من السجن، بالرغم من حزنهما الكبير عله، حتى تم الإفراج عنهما في ١٩٧١م، ليجدا مصر تعيش حالة من الغضب والغليان والرغبة في الثأر من هزيمتها الكبيرة في يونيو ١٩٦٧، وكانت مظاهرات الشباب في الجامعات لا تهدأ ولا تتوقف، وكان عدم الحسم العسكري مع إسرائيل عاملًا مهمًا في المظاهرات.

وعندما خرج الشيخ إمام وجد الوضع مختلفًا وروحًا جديدة تسري في مصر وشبابها منشغلًا بالقضية الوطنية، فكانت أغانيه مفعمة بالأمل، ولذا غنَّى وسط الطلاب المتظاهرين في جامعة القاهرة عام ١٩٧٢ "رجعوا التلامذة للجد تاني" و"صباح الخير على الورد اللي فتح في جناين مصر"، و"مصر يا أمة يا بهية"، وتكررت مشاركات إمام وأغانيه في عدد من جامعات مصر، وهو ما عرضه ونجم للاعتقال بعد حوالي شهر من خروجه من المعتقل، واستمرا رهن الاعتقال حتى تم الإفراج عنهما بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م، إلا أن الشيخ إمام والشاعر أحمد فؤاد نجم كانا قد أدمنا النقد السياسي من خلال الأغنية، ولذا تعرضا للاعتقال مرة أخرى عام ١٩٧٦ بعد حفل كبير أحياه الشيخ إمام في نقابة الصحفيين، ليقضيا شهورًا أخرى في السجن.

عودة إلى القرآن

وفي هذه الأثناء، كان الشيخ إمام قد أصبح ظاهرة فنية وإنسانية، تناولها الكثيرون بالدراسة والنقد والتحليل، وارتبطت فرقته وأغانيه بالتيار اليساري فنيًا وليس

فكريًا، فعندما توفي "تشي جيفارا" غني له أغنيه رائعة بعنوان "جيفارا مات"، كما غني للزعيم الفيتنامي " هوشي منه"، وفي عام ١٩٧٩ تصاعدت الاحتجاجات الشعبية ضد معاهدة "كامب ديفيد" ومن جديد يختار الشيخ إمام أن يشارك الطلبة غضبهم، فيحيي حفلًا في جامعة عين شمس بالقاهرة، سخر فيه من السلام الجديد، وانتهى الحفل كالعادة بالقبض علىه ليحاكم هو ونجم بتهمة سب "الذات الرئاسية" وحكم عليهما بالسجن لمدة عام، ليفرج عنهما بعد اغتيال السادات في أكتوبر من نفس العام.

وفي عام ١٩٨٤م، يتلقى الشيخ إمام دعوة من وزارة الثقافة الفرنسية لإحياء بعض الحفلات في فرنسا، فنالت حفلاته هناك إعجابًا واحتفاءً كبيرين من الجمهور ووسائل الإعلام وخصوصًا العرب، كما لبي دعوات أخرى لإقامة حفلات في بريطانيا ولبنان وتونس وليبيا والجزائر ساهمت في نشر فنه عربيًا، وفي تلك المرحلة وقعت خلافات بين الشيخ إمام ورفيق دربه أحمد فؤاد نجم وضابط إيقاعه محمد علي، ولم تنته إلا قبيل وفاة الشيخ إمام بفترة قصيرة.

وفي منتصف عقد التسعينيات، كان الشيخ إمام عيسى تجاوز السبعين من عمره، ولم يمتلك إلا حجرة بها سرير ودولاب، بأموال جمعية الملحنين وغيرها، ولم يعد يظهر في الكثير من المناسبات كالسابق، وآثر أن يتقرب إلى الله، ويعود مرة أخرى إلى القرآن والابتهالات والتواشيح التي كان يحفظها عن ظهر قلب، وهام في العشق الإلهي وغلبت عليه سمات التصوف بعد عقود من النقد السياسي والصراع مع السلطة، وفي السابع من يونيو ١٩٩٥م رحل الشيخ عن عمر يناهز ٧٧ عامًا.

الشيخ زكريا أحمد

مبتهل بدرجة فنان كبير

فنان من طراز خاص له من التواشيح ما يكفي ليتبوأ مكانة مرموقة بين كل المنشدين، طلبه في شبابه سلطان الدولة العثمانية ولعًا بصوته الجميل، فهو دون غيره من الموسيقيين العرب الكبار معروف بمزاجه الخاص ذي المقومات المركبة، صاحب الريادة في تطوير فن الطقطوقة والتواشيح، وهما من أهم أشكال الغناء العربي، إلا أن تطويره لم يمس آلات الموسيقى العربية أو المقامات العربية أو الإيقاعات، فأسس تطويره على ملامح عربية أصيلة، فحفظ المضمون وبدل في الأشكال، منطلقًا من الأشكال الأصلية، ولذا قد يهم الناس في جعله رجعيًا في الفن، وهو خلاف ذلك.

الشيخ زكريا أحمد أحد كبار الموسيقين العرب تعصبًا لعروبة موسيقاه، وأوضحهم في انتمائه المصري الأصيل ووالده أحمد صقر وكان من أنصار الحامولي وتزوج من فتاة من أسرة تركية، أنجبت له بنات فيما الذكور منها كانوا يموتون في أسبوعهم الأول إلى أن رزقوا بزكريا بعد واحد وعشرين طفلًا ماتوا.

أرسل زكريا إلى كتاب الشيخ نكلة قرب منزله، كان والده شديد الولع به يخشى دائمًا من فقدانه، وكان الولد نبيهًا سريع الحفظ، لكنه كان شقيًا أيضًا، وقد طرد من الكتاب حين عض الشيخ منصور الذي كان ينفض له فروته أي يضربه.

خروج عن النظام

فانتقل إلى الأزهر حيث أمضى سبع سنوات لم يبدل في أثنائها شيئًا من طباعه، فكان يقلب دبابيس عمامته حتى إذا ضربه الشيخ على العمامة دميت كفه، وفي سن الثالثة عشرة طرد من الأزهر لأنه ضرب الشيخ، فأخذ يميل إلى حضور الموالد والأذكار في السرادقات لسماع كبار الشيوخ والمقرئين والمطربين، وكان يشتري كتب الغناء ويغلفها بأغلفة الكتب الجادة.

أدخله والده بعد الأزهر مدرسة ماهر باشا في حي القلعة، فطرد من أول يوم لأنه لم يكف عن الغناء، لا في الفصل ولا في الفسحة، فأخذت حياة الشيخ زكريا في مراهقته تتحول إلى التشرد، فخلع الجبة والقفطان، واختصم خصامًا شديدًا مع والده إلى أن طلب من الشيخ درويش الحريرى في تعليمه وتحفيظه القرآن الكريم، وظل في صحبة الشيخ درويش عشر سنوات، فحثه على الغناء في بطانة الشيخ سيد محمود خادم السيرة النبوية، لكنه لم يلزمها غير أشهر وعاد إلى فرقته الحريرى، الذي أجازه في حضور الحفلات وإحياء المآتم والأذكار والاعتماد على النفس، فيما بعد التحق بفرقة الشيخ إسماعيل سكر للقراءة والإنشاد، فعظم صيته في القاهرة والأقاليم حتى استدعاه السلطان محمد رشاد إلى الأستانة لإحياء إحدى الحفلات العظيمة.

وبدأ زكريا يطفو في الأرياف يسمع الناس ويستمع إلهم، وأخذ يكتنز تراث الفلاحين، ويضم حصاده إلى حصيلة عشر المنتديات في القاهرة، وقد أخذ مع الوقت يعرض عن الغناء الديني ويقبل على الطرب والموسيقى، حتى يئس الشيخ درويش الحريرى في تحفيظه القرآن، فحفظه آيات معلومة تناسب احتفالات بعينها.

عشق للفن

لم يخض زكريا غمار المسرح الغنائي قبل موت سيد درويش إلى مرة فقط، كان ذاك سنة ١٩١٦، حين اجتمع طلاب يهوون التمثيل منهم حسين رياض وحسن فايق،

فشكلوا فرقة ودعوا زكريا إلى تلحين روايتهم "فقراء نيويورك"، فلحنها مجانًا ثم انقطع عن هذا الصنف من التلحين حتى عاد إليه سنة ١٩٢٤.

وقد أمكن إحصاء ثلاث وخمسين مسرحية غنائية لحنها زكريا، وتراوح عدد ألحانه في كل منها، من ثمانية ألحان إلى اثني عشر لحنًا، إلا "دولة الحظ" فكان له فيها سبعة ألحان، وبلغ عدد أغنياته المسرحية خمسمائة وثمانين لحنًا حتى حظى كثير منها بشهرة واسعة.

كانت مسرحيات الشيخ زكريا كانت امتدادًا لتراث سيد درويش، فتضمنت مسرحياته نقدًا عنيفًا وحكمًا، لتصوير الأوضاع الاجتماعية ونقد هادئ وعنيف في أحيان، واستخدم أسلوب تمثيل الممالك الخيالية لنقد السلطة، وإلا جانب الصور الاجتماعية التي حفلت بها المسرحيات، احتشدت أيضًا بالتصوير الوجداني للشخصيات والمشاعر، وزكريا كان متفوقًا على أقرانه في هذا الفن المسرحي، حيث كان غزير الألحان سريعها إذا شاء أو اضطر.

أما ظهور السينما في المسرح الغنائي، فكان له أثر حاسم، ولم يكن زكريا استثناء في انتقاله من العمل المسرحي الغنائي إلى العمل للسينما الغنائية، وقد اشترك في تلحين أغنيات سبعة وثلاثين فيلمًا، تضمنت إحدى وتسعين أغنية من ألحانه، واشتهر معظمها اشتهارًا عظيمًا، ولابد في مجال تلحين الشيخ زكريا للأفلام من ذكر وراثته في تصوير المشاهد الجماعية عن الشيخ سيد درويش وهو فن ورثه عنه سيد مكاوي في "الليلة الكبيرة" وغيرها، وتبدو قدرته على هذا التصوير في أوجه أحد مشاهد فيلم "ليلى بنت الفقراء"، مشهد مولد السيدة زينب، حيث ينشد زكريا وهو معمم، وحوله بطانته توشيحًا جميلًا.

طقاطيق وتواشيح

طور زكريا أحمد في الغناء العربي الطقطوقة والدور، ولعل في هذا دلالة أخرى على أصالته الفطرية، فأعطى أربعة أزجال وطلب أن يلحنها طقاطيق لشركة بطرس بيضا واشترط على الشركة ألا يلحنها غيره، إلا أنه انصرف منذ موت سيد درويش إلى المسرح الغنائي، فيما كانت أم كلثوم تتدرج في مدارج الشهرة مع الشيخ أبو العلا والدكتور صبري النجريي ومحمد القصبجي، فبدأ على الفور تطوير الدور والطقطوقة في أغنيات خالدة لحنها.

ولا شك في أن تطوير زكريا لشكل الطقطوقة أرشد محمد عبد الوهاب والقصبجي والسنباطي إلى التوسع في ابتكار أشكال للطقطوقة، حررتهم في معالجة هذا النوع في أغنيات الأفلام التمثيلية، ثم في الأغنيات المسرحية، والأغنيات الطويلة.

أما موشحاته وتواشيحه التي لم تغنها أم كلثوم تكاد لا تحصى منها: "يا هلال السما –يا من يرجى – يا أيها الحادي اسقني – زارني والليل حالك – يا نسيم الصبا".

يصطلح إجمالًا على أن الشيخ زكريا كان أغزر الموسيقيين العرب تلحينًا في العصر الحديث، إذ قدر عدد الأغنيات التي لحنها بنحو ١٠٧٠ أغنية، وقد بدأ يلحن سنة ١٩١٦ على ما سلف، وأول من غنى له صالح عبد الحي وعبد اللطيف البنا ومنيرة المهدية وفتحية أحمد وغيرهم من كبار عالم الغناء في ذلك الزمن.

وفي أواخر سنة ١٩٥٣ أصيب الشيخ زكريا بالذبحة الصدرية الأولى، وكانت قضيته مع الإذاعة وأم كلثوم قد وصلت إلى مرتبة خطيرة من العنف والشدة، وكان مرضه في اليوم الثالث من ديسمبر ١٩٥٣، وكان الشيخ حساسًا للغاية، لكن قليلًا من الإطراء الصادق يغنيه عن ثروة.

شاعر مفطور

ليس هذا فحسب، بل كان الشيخ زكريا أحمد شاعرًا مفطورًا، طغى حسه الموسيقي على فطرته الشعرية، فطمسها، وظل زكريا في الواقع يؤلف حتى آخر عمره، وإن لم ينشر، وكان يعدل الأزجال التي لحنها، ومنها أنه اقترح إبدال "أنا في انتظارك" من "أنا في استنظارك" فوافقه بيرم، ولم يكن حسه الشعري ضمانًا لانخراطه في مجموعة بيرم التونسي وبديع خيرى قلبًا وقالبًا فقط في هواهم السياسي والاجتماعي، بل كان هذا الحس الشعري يثري كذلك حسه لإيقاع الكلمة والنغمة حين يغني.

وغناء الشيخ زكريا أحمد غناء قوي ، فعلى الرغم من جشة صوته، بل كان غناؤه مدرسة لكثير من المطربين، إذ كان يمتاز بعناصر منها: "النبر المؤخر، وهذا هو أوضح سمة في تقطيعه الغناء، وينم نبره المؤخر الإيقاعي عن إحساس كامل وسيطرة مطلقة على إيقاع الكلم وتفعيلات الموازين، وكانت هذه السيطرة تبيح له التصرف بتقطيع الجمل كيفما يشاء، فالعرب القديمة في الغناء والخنفة الموروثة عن أسلوب الإنشاد في القرن الماضي، وإذا تسنى سماع درويش الحريرى في غنائه لموشحاته، أوداوود حسني في أدواره، فلن تظل ثمة غوامض في جذور زكريا وأصوله.

كذلك تميز بعرض صوته، وكان يستخدم الطبقات المنخفضة في تلوين غنائه على الدرجات المختلفة، والدقة في التلوين المقامي، إذ كان إحساسه للسكك المقامية في غنائه واضحًا وضوحًا مطلقًا، فلا يترك ندحة للالتباس، ويؤدي بذلك تغييره المقام أثرًا انفعاليا مضاعفًا، والتصرف العبقري باللحن، وذلك الفضل فيه لخياله الموسيقي الخصب، ذي المؤونة الثرية بالموشحات وألوان التدويد والإنشاد.

كان زكريا غزير الألحان، لم يكن متفوقًا بالكثرة بل بالجودة أيضًا، لأنه كان يؤثر إنضاج العمل الموسيقى، إنضاجًا صحيحًا ولو اقتضى طويلًا، ولم يكن الشيخ

زكريا ممن أدركتهم لوثة عقدة الغرب، ولم يكن من أولئك الذين يؤمنون اليوم في مصر وغير مصر، بأن العلوم الموسيقية هي العلوم الموسيقية الغربية وحسب بل كان يعرف أن جهل الموسيقى لموسيقاها العربية وأصولها وجذورها، هو جهل ولو امتلك علوم الغرب الموسيقية كلها.

إن العنصر الإنفعالي في موسيقى الشيخ زكريا هو أعظم ما تتصف به ألحانه من حيث المضمون، وهو يتبع في المعتاد لتصعيد الانفعال في ألحانه أسلوب التتالي، وهو أسلوب ترداد، فقرة موسيقية على درجة أعلى أو أخفض، مثنى وثلاث، حتى بلوغ ذروة الانفعال.

الشيخ سلامة حجازي

فن الإنشاد المصري

من قراءة القرآن خرجت معاطف موسيقية تولدت منها ألوان متعددة من الأداء الغنائي كالتواشيح، والاستغاثات والإنشاد ـ وما إلى ذلك من ألوان خلقت لنفسها تراثًا من الأنغام والأشعار والمقامات الموسيقية، وأجيالًا من الموهبين، لعل أولهم وأبرزهم بصمة على صفحة التاريخ الفني هو "الشيخ سلامة حجازي" الذي كان الأنشودة المطربة لمصر في عصره "نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر"، وكان بلبلها الصداح الذي طالما غرد لأمته فأزاح عن قلوبها الترح، وأذهب عن فؤادها الأحزان، وجلب لها معاني المسرة والابتهاج.

ولد سلامة حجازي عام ١٨٥٢م بحي رأس التين بمدينة الإسكندرية، وظل يترعرع في حجر أمه وحضانة أبيه ولما بلغ الثالثة من العمر أصيب والده بالتهاب رئوي ذهب بحياته تاركًا وراءه ولده وزوجته وأمه العجوز، التي فارقت الحياه إثر صدمتها في والدها، خلف الريس "إبراهيم" لعائلته مالًا كثيرًا وعقارًا كبيرًا، فكان ذلك مدعاة لأن تتخير زوجته "سلومة" زوجًا يقوم على إدارة أملاكها، فتزوجت من صديقه "محمود الكحلة"، وكان يقوم مقامه وأقرب الناس إليه أيام حياته.

الطريقة الرأسية

وكان "الكحلة" رجلًا مستهترًا سكيرًا شهوانيًا، لذلك لم يلبث إلا بضعة أشهر على وفاة صديقه الأول حتى أبطل عادة الضيافة، وأقفل الباب في وجه الزائرين

والمريدين لأهل الريس "حجازي"، مما أغضب شيخ الطريقة الرأسية عليه، وكان هذا الأخير شيخًا فاضلًا عالمًا ورعًا، يرأس جماعة كبيرة من أصحاب الطرق، ويقضي بين الناس بالحق، وله نفوذ وسلطة دينية كبيرة بين قومه، وبلغ من شغف العائلة به أن أسمت مولودها باسمه وكان يدع "سلامة الرأس" تيمنًا وبركةً، كما اختص الشيخ هذا الطفل بحمايته وحبه، فما كان "الكحلة" يقفل باب البيت في وجه زواره حتى نزع الشيخ "سلامة الرأس" الطفل الصغير "سلامة حجازي" من حضانة زوج أمه، وألحقه بالمعلم "أحمد فراج" الحلاق أمام زاويته المعروفة إلى اليوم باسمه بحي الميدان، وكان هذا عام ١٩٣٢م ليكون قريبًا من عطفه، وليتولى تربيته تحت سمعه وبصره.

في ذلك الحي الهادي المشمول بالبركة الصوفية كان يلجأ "سلامة" إلى زاوية الشيخ قصد التفرج والنظر، ولما كانت الأدعية تتماوج بشدة كان يأتي الشيخ برهط كبير من منشدي عصره يتناوبون الإنشاد، لتخفيف تلك التأججات النفسية والتوترات العصبية، وليوصلون على نبرات أصواتهم العبادة خالصة للملكوت العلوي، وأعجب الطفل منظر الذكر وأخذته حلفته المتماسكة بأعضاء الرجال، وأشجاه صوت "السلامية"، فعكف في روحاته على تقليد صوتها منفردًا حتى ذهب به الشغف واشترى مثلها ليقلد صوت العناني بـ"نايه" وكان هذا مشهورًا بالتوقيع عليه، ويذكر المرحوم "الشيخ محمد السيسي" رفيق صباه وزوج أخته "شفيقة"، فيما بعد في مذكراته أن "سلامة" أتاه دامع العين ليلة، وطلب منه أن يشتري له "سلامة" ليوقع عليها، فاشترى له واحدة بلغ ثمنها قرش صاغ أخذها منه وصار يوقع علها في فراغ وقته وليله.

عبث الطفولة

واظب "سلامة" على الحضور إلى الزاوية، وكان يأخذ مكانه بجانب "العناني" نافخ الناي متزنًا رزينًا ولا يبدو عله ما يبدو على الصبيان من طائش الحركات وعبث الطفولة، فلفت بهذا الخلق أنظار علية القوم، فقربوه منهم وأدنوه من فرقة المنشدين

ليسند "العناني" بنايه إلا أنه أخفق في تجربة الناي وفي محاولة الإستمرار عليه، لأن نفسه لم تكن قد قويت بعد فلم يستطيع مداومة النفخ، ولم يكد يمر عليه أسبوع حتى أصيب صدره فامتنع، بيد أنه حاول إظهار وثبات نفسه في شيء أبسط وأمتع، وهو أن يسند المنشد في الآهات الطويلة، وكان المنشد وقتئذًا الشيخ "كامل الحريرى" الذي أنس فيه صوتًا رقيقًا وغنة حلوة يصلح معها أن يكون ضمن البطانة، فضمه إله محتفيًا به من الزمرة.

وقد كان ما قدره الله له حيث حمل، وهو في العاشرة من عمره مهمة قوية يؤديها لشعبه وهو لا يعلم، فعكف على عمله الجديد، وتجلت على الناس مواهبه الغنائية شيئًا فشيئًا، فأعلوا درجته إلى أن وصل بعد مدة وجيزة إلى درجة منشد ابتدائي، إذ يفتح الحفلة بما يتيسر من القرآن الكريم، والذي قد حفظه أجمع قبل أن يتجاوز الحادية عشر، كان انتشر صيته في الحي وشهد بحسن الصوت وترتيل القرآن حتى تهافت على طلبة كبار الأسر من أهل حيه، ورتب على حد تعبير العامة في منازلهم لتلاوة القرآن، كراتب يومي مقابل أجر ارتفع عن بقية إخوته المقرئين، فاضطر أسفًا إلى ترك معلمه "أحمد فراج" ليتفرغ إلى عمله الجديد.

لينفق على عائلته التي أنهكها الفقر، خاصة بعد موت زوج أمه "الكحلة"، وفي هذه الأثناء أصيب الشيخ "الرأس" في عينيه فكف بصره، واحتاج إلى من يقوده ومن هناك أجدر من "سلامة" والده المتنبي بهذه الوظيفة ومن هناك محبب إلى قلب الشيخ الكبير من هذا الغلام الوديع الذي هذبه اليتم، وثقفت نفسه محن الحوادث وقسوة الأيام؟

الولد البكر

وفي هذا الحين، ابتدأ يفكر في تأليف جوقة متنقلة تطوف في البلاد المجاورة قصد الطرب والإنشاد، وتمكن في مدة طوافه البسيطة أن يجمع مبلغًا ضخمًا من

المال كان له بمثابة رأس مال يدير به جوقة منظمة مرتبة كاملة بيد أن القدر فاجأه بموت ولده البكر "محمد" فحزن عليه حزنًا لم يستفق منه إلا عندما أبلغ بوفاة والدته "سلومة"، وهنا تشاءم الشيخ من رشيد وعمل على السفر منها فعاقه أبناء عمومته عن السفر، وأبوا أن يتركوه حتى الأربعين بعد وفاة والدته فأمر الشيخ أخاه لأمه "محمود الكحلة"، وقد كان مشهورًا بـ"حجازي" أن يسرح أفراد تخته ويكافئهم بمرتب نصف شهر فادعى هذا السفر إلى الأرياف قصد التحصيل وطلب مهلة أيام قليلة أجابه الشيخ إليها، وكان محمود يعاون أخاه في أموره ويدير له أمر جوقته، كما اختصه الشيخ بالإدارة المالية التي عاش طوال عمره لا يعرف عنها شيئًا، بيد أن محمودًا هذا كان سكيرًا ، وكان مدمنًا عربيدًا كما كان والده، فما شكى منه أخوه يومًا وما قابله إلا بالإبتسام، وما أنبه إلا بالحسنى.

أقام "سلامة حجازي" عام ١٨٨٣م بمنزل بجوار زاوية الرأس في حي الميدان وذلك المنزل الذي لا يزال يحمل اسمه في حارة بزأمة وسعى لتأليف رجال قادريين في فن الآلات، إذ أنه اعتزم الظهور باحتراف المهنة، وترك ليالي الزاوية والذكر، وانضم إليه في نهضته هذه بعض الأدباء والزجاليين وألقوا له قطعًا غزلية طريفة لحنها بصوته، واصبحت فيها بعد أية في الخلود والذيوع واجتهد في تنسيق القديم من القصائد وحزبها من جديد وصوغها في قالب بديع من الإنشاد وهم دفعة واحدة لافتتاح التخت بمطلع القصيدة مباشرة من غير إطالة في "الليالي" القديمة والأهات البالية.

جاءت تلك الحركة التجديدية طابعًا حديثًا في فن الغناء، اختص به الشيخ وحده كانت لها قيمتها وأثرها عند المغنيين في ذلك الحين، حيث كان الشائع في الأناشيد والقطع المستعملة للغناء إبان ذلك العصر بأن يكون قالبها المفرغة فيه قالب

العامية الركيكة وتجدها بجانب كل هذا خالية من السمو الشعري والمعنى السامي وقد كانت هذه القطع التي لابد من أن يستعملها المغني لإطراب سامعيه في هذه العصور، غير أن مطربنا عندما هم في ميدان التجديد، أشار على أخواته الأدباء أن ينتظموا له قطعًا غزلية رسم أساليبها ونماذجها وأشعارًا وضعية حديثة ومقاطيع غرامية وصفية وتتفق والحالة التي تلائم سنة الإنتقال، واتخذ لنفسه موقفًا بإزاء القصائد المتداولة المعروفة، والتي كانت تحسب أن لابد منها للفن، بأن نقح حزبها وأسبغ على معناها روحًا فياضًا بالنغم السامي والضرب الآخاذ.

تلألأ اللفظ

بذلك أخذت طابعًا غير طابعها الأول استطابه الناس واستلذوا سماعها حتى أنه حينما ينشد القصيدة المشهورة "سلوا حمرة الحذين عن مهجة الصب" على طريقته الحديثة وابتكاره الذي نوهنا عنه، بدت للسامع متلألئة اللفظ حلة المعنى عذبة المنهل صافية الأديم، فأسبغ على كلام الابتهالات والأناشيد روح السمو والعظمة، وأضفى علها نغمًا جليلًا وضوءًا شعريًا ويتجليان لك على الحرف الواحد منها، وكذلك قل في باقي القصائد المتعارفة في فن النغم القديم مثل القطع الخالدة في تلحينه الإنشادي.

لقد جدد الشيخ سلامة حجازي في الغناء وانتقل بالأدوار والتواشيح الصغيرة من عالم السذاجة والوزن العقيم إلى عالم النغم ذات الأصول المحكمة، وابتدأ يلحن أدوارًا جديدة تعد من الطراز الأول في السمو الفني ومن الإعجاز التام في عالم النغم، فكان يناله أفراد جوقته ليصل بذلك إلى تمكين مبادئ التحديد وإطراب السامعين، فكان يجد ليرضي الفن، لأن الفن تملك عليه مشاعره وسخره لنفسه، ولم يكن له في نفسه أو في رجاله ماله علىه من سيطرة وسبيل، وفعلًا بدأ "بمذاهب عشر" ملحنة

تلحينًا دقيقًا من بواعث وجدانه، حيث أودعها كل ما في ذات نفسه من مشاعر وثابة لتعليه شأن الفن وأمر الغناء.

توقف فرحيل

كان الشيخ حجازي يعيش لفن الإنشاد والغناء الأصيل لذلك انصرفت مجهوداته بل حركاته وسكناته إلى الطموح والسمو، لتعلية درجة هذا الشيء، الذي أساس علمه قيادة، فإذا كان ثمة من مجهود فني، ومن تطور وتقدم في سبيل إعلاء شأن المسرح، فإنما ذلك راجع إلى مشاعر الشيخ وثبات نفسه الطموحة، وهي التي سمت بالفن وأعلته لفرقة الشيخ سلامة حجازي، حيث تقدم وسط هذه المنافسات القوية، وذلك التنازع الشديد بقدم راسخ وعزيمة قوية، وهو وإن كان إذ ذاك لا يملك من المال، ولا من مقومات الحياة ما يملك الآخرون ولكن ذلك الصوت الفريد الذي وهبته إياه القدرة الإلهية جعل منه بطلًا لا ينافس وصنديدًا لا يضارع، مهما تألب الخصوم واحتدم ميدان المنافسة، واشتدت عوامل التزاحم، وظل مرفوع الرأس كما ظل مسرحه كعبة القصاد، والمنارة التي يأتي على ضوئها عشاق الفن ومحبوا التمثيل، إلا أن السن بدأ يتقدم والصحة تتأثر فقرر الابتعاد.

كان يوم ٤ أكتوبر ١٩١٧م بمثابة يوم الفجيعة الكبرى لكل الشعب العربي، لأنه ذلك إليوم الذي رحل فيه عن عالمنا الشيخ سلامة حجازي، وذلك عن عمر يناهز ٦٥ عامًا، فقد سكت ذلك الصوت السماوي الحنون، وخبت نبراته، وغيب الشيخ عن الأنظار إلى ما شاء الله وانتشر الخبر وضرب الحزن على جميع الناس، وخيمت الرهبة على شعب مصر وعمها الآسى والحزن.

الشيخ سيد درويش

المرجعية الأولى لكل المبتهلين والمنشدين

تلحين القرآن أو قراءته مصحوبًا بالموسيقى قضية حسمها علماء الدين واتفقوا على أنه أمر لا يجوز أبدًا، إلا أن الملاحظ جليًا أن دراسة القرآن وحفظه هي الخطوة الأولى لاحتراف الموسيقى والتفرد فيها والتميز، ربما لما يحتوي عليه كلام الله تعالى من جرس موسيقي بدون آلات، وهذا بدوره ما يجعل دارسه في سعي دائم وبحث مستمر عن مصادر هذه الموسيقى، هكذا كان يطلق في الماضي على كبار الموسيقين أمثال سيد درويش وزكريا أحمد وسلامة حجازي وغيرهم لقب الشيخ، فيهم حفظة للقرآن ورواد في مجال الإنشاد والغناء الديني والاجتماعي كل حسب ميوله، إلا أن الثابت أن أثر هؤلاء المشايخ كبير على فن الابتهال والإنشاد كبير لا يمكن إنكاره، وربما يكون الشيخ سيد درويش في طليعة هؤلاء ممن أصلوا لانطلاق حركة فنية رائدة على صعيد الإنشاد والابتهال.

ولد سيد درويش في مدينة الإسكندرية في حي كوم الدكة في ١٧ مارس عام ١٨٩٢، وكان أبوه المعلم درويش البحر يمتلك دكانًا صغيرة لصناعة النجارة البلدى في حيه، وعندما تهيأ الطفل سيد لبداية حياته المدرسية أراد له والده أن يسلك مسلك العلم والفضل، ومن ثم خط له طريقًا يجعله في مستقبله شيخًا وموجهًا دينيًا أو إمامًا أو مدرسًا، وبدأ الطفل يداوم على الكتاب، وبعد تعلمه القراءة والكتابة وحفظه بعض

أجزاء القرآن الكريم، ترك سيد الكتاب، وانتسب إلى المعهد الديني في الإسكندرية تنفيذًا لرغبة والده، وداوم في هذا المعهد سنته الأولى.

هروب قسرى

ويوم دخوله المعهد اشترى له أبوه جبة وقفطانًا وعمامة تليق بطلبة العلم الشريف، وحينما ارتدى الطفل سيد هذه الملابس أمام والده أطلقت الوالدة زغرودة من أعماق قلبها فرحًا وابتهاجًا واغرورقت عينا الوالد بدموع الغبطة والفرح والأمل والبشرى، وفي العام الثاني من حياة الشيخ سيد توفي والده المعلم درويش البحر النجار الفقير، ولم يخلف له إلا بعض الدبون والتزام إعالة أمه وأخته.

لذلك اضطر الشيخ الصغير أن يقطع مرحلة دراسته، وخلع المسكين عمامته وجبته وراح يبحث عن عمل يعيش من وارده، وأول عمل قام به هو بيع الأثاث القديم مع قريب له، ثم عمل مساعدًا لبائع دقيق، ثم مناولًا المونة لأحد مبيضي النحاس، وكان خلال عمله يترنم بجمال صوته بألحان قديمة معروفة، وكان زملاؤه العمال أثناء سماعهم هذه الألحان يقبلون على عملهم بحماسة ورغبة لا مثيل لهما، فسر به معلمه وأمره أن يكف عن العمل ويكتفي بالغناء فقط، ففرح الشيخ سيد وجلس يغني طول نهاره للعمال ويشجعهم على عملهم، وكان الغناء السائد آنذاك أغاني عبده الحامولي ومحمد عثمان.

كانت هذه الانطلاقة الأولى سببًا في شعور الشيخ سيد درويش بموهبته الفنية، ويقال أيضًا إنه في العام الثاني من دراسته في المعهد الدنني في الإسكندرية وجد على الرصيف عند بائع الكتب القديمة كتابًا يبحث في مبادئ الموسيقى ثمنه نصف قرش، فأيقظ هذا الكتاب في نفسه مواطن الموهبة الموسيقية، وهناك عامل ثالث نبه فيه الشعور بالموهبة هو إعجابه بصوت حسن الأزهري، الذي كان يدعى لإحياء الحفلات الغنائية عند الأغنياء في السرادق، وكان سيد درويش لا تفوته حفلة من حفلات الشيخ

حسن حتى تأثر به، وصار يقلده تقليدًا بارعًا في طريقة غنائه وأدائه، وهذه العوامل الثلاثة بمجموعها تعتبر اللبنة الأولى في بناء حياة الشيخ سيد الفنية ومنطلقه الأول نحو المجد الموسيقي الفني الذي توصل إليه.

الإنطاق في الآفاق

ومع مرور الوقت، لم يعد الشيخ سيد راضيًا على أن يقتصر غناؤه على عمال المبيض دون سواهم، بل رغب أن يسمع فنه في سائر مجتمعه، الذي يعيش فيه فترك مهنة المبيض وعاد إلى عمامته وقفطانه، وامتهن الغناء بصورة نهائية، وصار يقلد في غنائه الشيخ حسن الأزهري معلمه الأول، وكان يؤدي ألحان عبده الحامولي ومحمد عثمان بطريقة جديدة غير معهودة ولا مألوفة على أسماع مواطنيه فلمع اسمه وذاعت شهرته بسرعة فائقة، ولكن هذه الشهرة كانت ضمن نطاق ضيق محدود لم تشبع نفسه الطموحة من جهة ومن جهة أخرى إن وارد الحفلات المتقطعة لم يكفه في سد حاجات معيشته وحياته.

أراد الشيخ سيد لنفسه في هذه الآونة دخلًا ثابتًا يعتمد عليه، فكان له ذلك ولكن على حساب كرامته وصحته ووضعه في الفترة، التي عمل فيها الشيخ سيد درويش على المسارح الرخيصة عرف أمرين لم يكن بهما سابق معرفة، النساء وصياغة الألحان، فالتعارف الأول طبيعي، وأما التعارف الثاني فكان بحكم الموهبة المتأصلة في نفسه وروحه وكلاهما فطري بالنسبة لهذا الفنان الكبير، كما أن ألمه الكمين في نفسه كان السبب في أن يخرج إلى الوجود بلغته الفلسفية النغمية، فيسحر بجمالها الألباب ويرقص النفوس، إنه ما كان يلحن أغنية حتى يرددها أفراد الشعب والعوالم اللاتي يقمن الأفراح والمسارح الغنائية وموسيقات الجيش والموسيقات الأهلية السر في انتشار الشيخ سيد بين أفراد الشعب هو ان لكل لحن قصة ومناسبة ولكل مناسبة أثرها العميق في نفس الشيخ سيد درويش المرهفة الحساسة.

أول لحن

فأول أغنية لحنها كانت "زوروني كل سنة مرة حرام تنسوني بالمرة"، وكانت مناسبة تأليفها على امرأة كان يحبها قالت له هذه العبارة، أبقى زورنا يا شيخ سيد ولو كل سنة مرة، ولحن آخر كان وحيه امرأة غليظة الجسم اسمها "جليلة" أحبها حبًا عظيمًا وغدت إلهامه في النظم والتلحين والغناء، هجرته هذه المرأة وأخذت تتردد على صائغ في الإسكندرية، وعمل لها الصائغ خلخالًا، فغضب الشيخ سيد وفكر بالانتقام من حبيبته وعزوله، وكان أول انتقام من نوعه على الطريقة الموسيقية الغنائية.

شعر الشيخ سيد بتدهوره الاجتماعي إثر غرامة المتواصل من غانية إلى غانية، فقرر أن يترك الإسكندرية وأن يقيم في القاهرة، وفعلًا ترك الإسكندرية عام ١٩١٧ وقرر الإقامة في القاهرة وفيها تعرف على المطربين والمطربات والفرق التمثيلية، وهنا تغيرت أحواله ودخل في دور الحياة الجدية وشعر بهذا التحسن الذي وصل إليه، وأنشد آنذاك دوره المعروف" يوم تركت الحب كان لي في مجال الأنس جانب، ورجع لي المجد تاني بعد ما كان عني غايب، وأول حفلة أقامها الشيخ سيد في القاهرة كانت في مقهى الكونكورديا، وحضر هذه الحفلة أكثر فناني القاهرة منهم الممثلون والمطربون.

وكان على رأس الحضور الفنان إلياس نشاطي وإبراهيم سهالون الكمانجي وجميل عويس، حتى وصل عدد الفنانين المستمعين أكثر من عدد الجمهور المستمع، وفي هذه الحفلة قدم دوره الخالد الذي أعده خصيصًا لهذه الحفلة "الحبيب للهجر مايل" من مقام السازكار، وفيه خرج عن الطريقة القديمة المألوفة في تلحين الأدوار من ناحية الآهات التي ترددها الجوقة، وكانت غريبة على السمع المألوف، ولذا انسحب أكثر الحاضرين لأنهم اعتقدوا أن هذه الموسيقى كافرة وأجنبية، وأن خطر الفن الجديد أخذ يهدد الفن العربي الأصيل، وبالطبع إن فئة الفنانين المستمعين لم

ينسحبوا لأنهم أدركوا عظمة الفن الجديد، الذي أعده الشيخ سيد لمستقبل الغناء العربي.

اشترك الشيخ سيد مع الفرق التمثيلية ممثلًا ومغنيًا، فعمل مع فرقة سليم عطا الله وسافر معها إلى سوريا ولبنان وفلسطين، وكان لهذه الرحلة أثر كبير في اكتسابه أصول الموسيقى العربية، إذ تتلمذ في حلب على الشيخ عثمان الموصلي العراقي، وسافر مرة ثانية مع فرقة جورج أبيض إلى البلاد السورية فأعاد الصلات الفنية بينه وبين موسيقها، واكتسب من أساتذتها ما افتقر إليه من ألوان المعرفة، ولما عاد إلى القاهرة في هذه المرة رسم لنفسه خطة جديدة في ميدانه الغنائي والمسرحي، فلحن معظم أدواره وموشحاته الخالدة التي عرفت الناس بمدرسته الإبداعية الجديدة.

الموشحات الحلبية

ظهر للشيخ سيد أول دور بعد هذه الرحلة وكان مقام العجم "يا فؤادي ليه بتعشق" وكان مقتبسًا من موشح حلبي قديم مقام العجم أيضًا أخذه الشيخ سيد عن الشيخ عثمان الموصلي، ولكنه لم يستطع في بادئ الأمر أن ينسبه إلى نفسه، وإنما نسبه إلى إبراهيم القباني، وأما ما اشتهر الشيخ سيد في تلحين الأدوار بين الناس عاد ونسبه إلى نفسه، وينسب إلى الشيخ سيد عشرة أدوار واثنا عشر موشحًا وأوبريت وطقاطيق أهازيج وأناشيد حاسبة وغيرها.

حازت هذه الموشحات والأدوار على شهرة كبيرة في سائر البلاد العربية، وأصبحت المادة الثقافية الفنية لكل فنان ومتفنن، وأصبح قياس المعرفة الموسيقة هو حفظ ألحان الشيخ سيد وأدواره وموشحاته وأهازيجه، فهو بحق قد أوجد نغمة الزنجران هذا إذا لم تكن هذه التسمية مأخوذة من النغمة العربية القديمة، التي وردت في كتاب الأدوار لصفي الدين عبد المؤمن الأرموي والمعروفة باسم زنكلاه، هذه النغمة من النغمات المركبة وتتألف من ثلاث نغمات هي العجم والجهار كار والحجاز كار بشكل مترابط.

كما عالج الشيخ سيد في أغانيه العديد من الموضوعات الاجتماعية والدينية كعلاج غلاء المعيشة وحرمة البيع في السوق السوداء، وهكذا استطاع أن يدرك ويلمس سائر الأمراض الاجتماعية، وأن يسهم في الميدان الوطني إسهامًا كبيرًا، فكانت أغانيه الوطنية يغنيها الشعب بكل حواسه وقلبه ومشاعره ولم يكن أثر الشيخ سيد في ميدان التمثيل والأوبرا العربية بأقل من أثره في ميدان الموسيقى والموشح والدور والطقطوقة والمونولوج الشعبي والأناشيد الوطنية وبعد ذلك الدينية.

الإصلاح بالموسيقى

لقد كان هدف الموسيقى المصرية قبل الشيخ سيد الطرب فقط، ولكن الشيخ سيد جعل منها مهنة أكبر وهي استخدام هذا الفن العظيم في الجهاد الوطني والإصلاح الاجتماعي والديني، هذا بالإضافة إلى ناحية التطريب في الموسيقى والغناء العربي على أن الطريقة التي سار علها الشيخ سيد في ألحانه للأوبرا، كانت منهجية صحيحة وكأنه متخرج من أرفع المعاهد الموسيقية، فكان يتلون النص الشعري أولًا ليتفهم معانيه فهمًا دقيقًا، ثم يعيش في بيئته ويعاشر أبطاله، ثم يأخذ في إلقاء النص الشعري إلقاءً تمثيليًا يناسب عباراته ومعانيه، كأنه ممثلًا على خشبة المسرح، وبعد ذلك يأخذ في إلباس ثوبه الموسيقي الذي يناسبه.

يقول الشيخ سيد درويش ـ رحمه الله–: "إن الموسيقى لغة عالمية ونحن نخطئ عندما نحاول أن نصبغها بصبغة محلية يجب أن يستمع الرجل اليوناني والرجل الفرنسي والرجل الذي يعيش في غابات أواسط إفريقيا إلى أي موسيقى عالمية، فيفهم الموضوع الموسيقي ويتصور معانيه ويدرك ألغازه، لذلك فقد قررت أن لحن البروكة على هذا الأساس، وسأعطيها الجو الذي يناسب وضعها، والذي رسمه لها المؤلف وسأضع لها موسيقى يفهمها العالم كله".

الشيخ سيد متولي

مبتهل بدرجة خادم كتاب الله

يبدو جليًا أنه هناك علاقة قوية بين عشق الإنسان لتلاوة القرآن وحبه لأداء الموشحات والابتهالات الدينية وهذا الأمر يتضح من ميل كبار قراء القرآن الكريم إلى أداء الموشحات رغبة منهم في إشباع حاجة نفسية داخلهم، فما أجمل أن يسمع الإنسان منال دعاء بصوت الشيخ محمد رفعت أو ابتهال بصوت الشيخ الحصري، فإتقان قراءة القرآن تعطي لصاحبها القدرة والمهارة الفائقة على أداء الابتهالات والأناشيد الإسلامية، وهذا ما وجدته جليًا في القاريء الجليل الشيخ سيد متولي عبد العال، القارئ والمبتهل والمنشد، فها هو يصدح في ابتهال "لك الحمد".

ولد الشيخ سيد متولي عبد العال بقرية الفدادنة مركز فاقوس بمحافظة الشرقية في ٢٦ أبريل عام ١٩٤٧م، لأسرة محافظة يعمل عائلها بالزراعة كبقية أهل القرية، حيث كان والده يتطلع إلى السماء داعيًا ربه أن يرزقه ولدًا بعد البنات الأربع؛ ليكون لهم رجلًا وملاذًا بعد وفاته، وكذلك كانت الأم في شوق إلى ابن يقف بجوار شقيقاته الأربع بعد رحيلها حتى تطمئن على بناتها بوجود أخ لهن يأوين إليه عند الشدائد ويجدنه بجوارهن دائمًا، تأكيدًا لرغبة الأم الشديدة في إنجاب غلام حليم دعت الله أن يرزقها الولد لتهبه لخدمة القرآن الكريم؛ ليكون أحد رجال الدين، وعاملًا بحقل الدعوة الإسلامية.

بعث الأمل

استجاب المولى لرجاء الوالدين ورزقهما بطفل ليبعث في نفسيهما الأمل، ويبث في قلبيهما السكينة والإطمئنان، بذلك عم الخير أرجاء البيت بمقدم الوليد وسهرت الأم ليلها ونهارها ترقب نمو ابنها متمنية أن تراه رجلًا بين عشية أو ضحاها، ومرت الأيام مر السحاب وتعاقب الليل والنهار وتوالت الشهور وبلغ الابن الخامسة من عمره، فأخذه أبوه وذهب به إلى كتّاب الفدادنة وقدمه إلى الشيخة مريم السيد رزيق، التي ستقوم بتلقينه الآيات والذكر الحكيم، وتعاهد الاثنان والوالد والشيخة مريم على الاهتمام بالابن سيد متولي أدق ما يكون الاهتمام، ورعايته أفضل ما تكون الرعاية فتعاون البيت مع الكتاب وقدما العون للطفل ابن الرابعة حتى يتفرغ لحفظ القرآن ومراجعته وإجادة نطقه.

وجدت الشيخ مريم علامات النبوغ ومؤشرات الموهبة لدى تلميذها، فانصب اهتمامها علىه وعاملته معاملة متميزة؛ لتصل به إلى حيث تضعه الموهبة دون تقصير ولا يأس، فهي المحفّظة التي تخرج على يديها وفي كتّابها مئات من الحفظة، مما مكنها من معرفة إمكانات الموهوب، وكيف تثقل موهبته كملقنة لها خبرتها ونظرتها الثاقبة؟

يقول الشيخ سيد متولي عن هذه المرحلة: لولا الشيخة مريم وفضلها على ما استطعت أن أحفظ القرآن بهذا الإتقان، ومازلت أذكر محاسنها وإمكاناتها وأمانتها في التحفيظ والتلقين والصبر على تلاميذها وكيفية تعاملها مع الحفظة بطريقة تميزها على بقية المحفّظين، بالإضافة إلى قناعتها بما كتبه الله، ولأنها كفيفة اعتبرت عملها رسالة ودعوة إلى الله، وكانت تردد لنا قول النبي ﷺ: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، وعندما يتخرج في كتابها حافظ للقرآن كاملًا كنت تجدها أسعد من في الوجود، وكأنها ملكت الدنيا في قبضتها واقتربت من أبواب الجنة باعتبارها من ورثة كتاب الله عز وجل.

كنز الدنيا

هكذا، عندما بلغ الفتى القرآني سيد متولي السادسة من عمره ألحقه والده بالمدرسة الابتدائية بالقرية، فلم ينشغل بالدراسة عن الكتّاب، لأن القرآن كنز الدنيا والآخرة، حيث عرف بين زملاء المدرسة، واشتهر بأنه قاريء للقرآن وسعد به المدرسون والتلاميذ، الذين قدموه لتلاوة القرآن كل صباح بالمدرسة، وكثيراً ما افتتح الحفلات، التي كانت تقام في المناسبات المختلفة، وفي هذه الآونة ظهرت عنده أيضًا موهبة أداء التواشيح والابتهالات الدينية، التي عشق زملاءه وأساتذته سماعها منه.

ظل التلميذ سيد متولي يتردد على كتّاب الشيخة مريم حتى أتم حفظ القرآن كاملاً وهو في سن الثانية عشرة، وأصبح قارئ القرية في المناسبات والمآتم البسيطة، وأحيا ليلة الخميس والأربعين، فنجح في ذلك بتفوق لأنه نال إعجاب الناس جميعًا، فأشار بعضهم على والده أن يذهب به إلى الشيخ الصاوي عبد المعطي مأذون القرية؛ ليتلقى عليه علم القراءات وأحكام التجويد، وخاصة أنه يجيد حفظ القرآن وتلاوته بصوت قوي وجميل، ولا ينقصه إلا دراسة الأحكام، وبالفعل استجاب الوالد لتوجيه المقربين إليه وذهب بابنه إلى الشيخ الصاوي، حيث علمه أحكام التجويد برواية حفص بإتقان مكنه من تلاوة القرآن بجوار عمالقة القراء.

لم يقتصر عطاء الشيخ الصاوي على الشيخ متولي عند هذا الحد، ولكن شاء القدر أن يبقى ذكر الشيخ الصاوي محفورًا بذاكرة الشيخ سيد متولي وكيانه، بعدما حصل متولي على المأذونية خلفًا لأستاذه الشيخ الصاوي، ليصبح الشيخ سيد قارئًا للقرآن ومأذونًا لقريته إضافة إلى كونه مبتهلًا متميزًا، إلا أن حب الشيخ لتحصيل علوم القرآن وحرصًا منه على التمكن من كتاب الله ذهب طموح الشيخ سيد به إلى قرية العرين المجاورة للفدادنة؛ ليتعلم علوم القرآن والقراءات على يد الشيخ طه الوكيل،

فوجد اهتمامًا ورعاية وأمانة واتقانًا وحرصًا من الشيخ الوكيل شجعه على الاغتراف من علمه، وأثقل موهبته بما تلقاه من علوم قرآنية على يد هذا العالم الجليل.

مشوار الشهرة

وبعد ذلك كله، ذاع صيت الشيخ سيد متولي في محافظة الشرقية وانهالت عليه الدعوات من كل أنحاء الشرقية، وبدأ يغزو المحافظات الأخرى المجاورة لإحياء المآتم وكثيرًا ما قرأ بجوار مشاهير القراء الإذاعيين أمثال الشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ البنا والشيخ عبد الباسط والشيخ حمدي الزامل والشيخ السعيد عبد الصمد الزناتي.

وعن مشوار الشهرة، يقول الشيخ سيد متولي: "لما بلغت العشرين عامًا ذاع صيتي ووصلت شهرتي إلى كل المحافظات المجاورة لمحافظة الشرقية، ودعيت لإحياء المآتم الكبرى بجانب مشاهير القراء، فلم تأخذني الرهبة لأنني تعلمت على يد واحدة من أفضل محفظي القرآن، وهي الشيخة مريم، التي مازلت أذكر بالفخر أنها أستاذتي ومعلمتي، وفي البداية لم أنظر إلى الأجر الذي لم يتعد جنيهًا واحدًا عام ١٩٦١م وعام ١٩٦٢م، وفي عام ١٩٧٠ دعيت لإحياء مأتم كبير ففوجئت بوجود المرحوم الشيخ محمود على البنا، فسعدت بأنني سأقرأ بجواره في سهرة واحدة، ولو لم أحصل على أجر، فإن سعادتي كانت أعظم.

ويواصل: بعد عام ١٩٨٠م وصلت شهرتي إلى المحافظات وامتدت في نفس العام إلى خارج مصر، فذاع صيتي في بعض الدول العربية والإسلامية من خلال تسجيلاته على شرائط الكاسيت التي جعلتني أشهر قاريء خارج الإذاعة، واستطعت أن أتفوق على كثير من قراء الإذاعة من حيث الشهرة وحب الناس لي، ويرجع ذلك إلى إمكانياتي المتعددة صحيًا وصوتيًا، حيث أتمتع – الحمد لله – بأحبال صوتية قوية

جدًا وطول في النفس بغير شهيق وصوت رخيم عريض جميل، إضافة إلى قدرتي على التلوين وفهم معاني كلمات القرآن.

الالتحاق بالإذاعة

لم يلتحق الشيخ سيد متولي إلى الآن بالإذاعة المصرية، لكنه قام بتسجيل القرآن لبعض الإذاعات العربية والإسلامية، إضافة إلى تسجيلات المتنوعة من ابتهالات وأناشيد إسلامية تلك التي تذاع بالأردن وإيران وبعض دول الخليج، وهو في ذلك ينافس بقوة مشاهير القراء الإذاعيين وخاصة بعدما دخلت تسجيلاته كل بيت، وفي متناول كل يد وخاصة السيارات والمحلات المنتشرة في أكبر ميادين المدن الكبرى، إلا أنه يؤكد أنه آن الأوان للتقدم لاختبارات الاعتماد بالإذاعة، داعيًا الله أن يوفقه؛ ليستطيع أن أخدم القرآن الكريم من خلال الإذاعة، التي تدخل كل بيت داخل مصر وخارجها، والإذاعة صاحبة فضل على كل قاريء أو منشد أو مبتهل مشهور.

سافر الشيخ سيد متولي إلى كثير من الدول العربية والإسلامية والإفريقية؛ لإحياء ليالي شهر رمضان وتلاوة القرآن الكريم بأشهر المساجد هناك وإحياء الليالي والاحتفالات، وله جمهوره المحب لصوته وأدائه في كل دولة ذهب إلها، وهذا الحب والقبول أعز ما حصل علله الشيخ سيد متولي على حد قوله، وخاصة إيران والأردن ودول الخليج العربي.

الشيخ عبد العاطي ناصف

مبتهل رغم عن أنفه

بطل هذه الحلقة هو قارئ لكتاب الله يمتلك أدواته جيدًا، دخل عالم الابتهالات عن طريق الصدفة، حيث وجد نفسه ذات يوم أثناء صلاة الفجر مضطرًا للقيام بدور المبتهل نظرًا لأن المبتهل منعه من الحضور ظروف قهرية في الوقت الذي تنقل فيه الإذاعة المصرية هذه الصلاة على الهواء، فأمسك بالميكروفون وبدأ باسم الله تعالى في الابتهال، ففتح الله تعالى عليه من فيضه الذي لا يجف أبدًا، فجاءت ابتهلاته رائعة جذبت إليه عدد كبير من المعجبين إضافة إلى عشاق صوته في تلاوة القرآن.

وعقب هذا الموقف تعارف لدى الناس جميعًا أن الشيخ عبد العاطي ناصف ليس مقرئ فحسب بل أيضًا مبتهل ماهر يحفظ من الأشعار الكثير ويعلم من قواعد الإنشاد والابتهال ما يؤهله، لذلك وبدأ منذ هذا الموقف حكاية جديدة مع الابتهال دفعته إلى الاستزادة من قواعد وفنون الإنشاد، ليكمل المشوار الذي بدأه صدفة، فكانت خير صدفة في حياته في حياة كل محبي صوته الذي يغلب عليه الصفاء والقدرة على إيصال كل المعاني.

ولد الشيخ عبد العاطي ناصف في عام ١٩٣٩ م بحارة سيدي العريان المتفرعة من شارع وسط البلد بشبين القناطر بمحافظة القليوبية، وفي عام ١٩٤٤ ميلادية توفي والده، وهذا بدوره ما جعل الطفل الصغير يبحث عن حضن آخر يتولى رعايته وتربيته، فلم يجد سوى جده لوالده الذي كان معروفًا عنه الصلاح والتقوى، وبالفعل بدأت

رحلة جديدة معه مبكرًا حيث دفعه منذ الصغر إلى الذهاب إلى كتاب القرية القريب من المنزل ليبدأ في تعلم الأبجدية لتكون عونًا له في المدرسة عند حفظ القرآن الكريم، وفي ذات الوقت بدأ الطفل مشواره التعليمي في المدرسة.

أسرة قرآنية

كان الشيخ ناصف من المحبين للقرآن وربما نتج ذلك عن نشأته في أسرة يغلب عليها التدين، ومن ثم كان يعكف على سماع كبار المقرئين والمنشدين والمبتهلين، فكان حريصًا منذ الصغر على الذهاب إلى الموالد للاستماع إلى المنشدين ومداحي الرسول ﷺ، وكان دائم التقليد لهم خاصة وأن الله قد وهبه صوت قوي ومرن في ذات الوقت.

وكما كانت بداية علاقة الشيخ عبد العاطي ناصف مع الإبتهال عن طريق الصدفة، كانت أيضًا علاقته بالتلاوة صدفة أيضًا، فذات مرة وأثناء تواجده بالمدرسة استمع إليه الأستاذ عبد الخالق ناظر المدرسة، وكان يقرأ قول الله تعالى: "والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب إن كل نفس لما عليها حافظ فلينظر الإنسان مما خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع إنه لقول فصل وما هو بالهزل إنهم يكيدون كيدًا وأكيد كيدًا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا" (سورة الطارق).

هكذا أعجب ناظر المدرسة بشدة روعة صوت هذا الطفل الصغير وسرعان ما رآه في حلة الشيخ المبجل حافظ كتاب الله كالشيخ رفعت أو غيره من كبار أعلام مدرسة التلاوة والابتهال في مصر، ولذلك طلب هذا المعلم الحريص على مصلحة تلميذه من عبد العاطي ناصف أن يخبر جده أنه يرغب في مقابلته، وفي المقابلة أخبر

ناظر المدرسة جد الشيخ بضرورة مواصلة الطفل عبد العاطي ناصف حفظ القرآن الكريم.

سعادة غامرة

وعندما سمع جده هذا الكلام من الأستاذ عبد الخالق ناظر المدرسة انتابته حالة من السعادة الغامرة، وقرر أن يواصل المشوار مع هذا الطفل الموهوب بشهادة أساتذته، وبالفعل بدأ الرحلة مجددًا مع القرآن فأتم الشيخ ناصف حفظه عند سن العاشرة، وبدأ تعلم قواعد اللغة العربية ثم أحكام التلاوة والتجويد، بل أصر على أن يكون على دراية كافية بالمقامات الموسيقية لكي يستطيع أن ينشد ويبتهل إلى جانب اتقانه للتلاوة، كمن يراهم مثلًا وقدوةً له كالشيخ الحصري والشيخ محمد رفعت.

هكذا، تعلم الشيخ عبد العاطي ناصف بعد إتمامه لحفظ القرآن التجويد وكان عمره في هذا الوقت لم يتجاوز الخامسة عشر، وتعلم القراءات على يد الشيخ على أبو أحمد بقرية الأحراز دونما مقابل، وذلك إعجابًا وتقديرًا موهبته، وذات يوم ذهب مع جده لأداء واجب العزاء في أحد أهالي شبين القناطر، وقرأ فجذب القلوب وخلال تواجده بالمسجد الكبير لأداء صلاة الجمعة، طلب منه شيخ المسجد قراءة قرآن الجمعة، فأعجب به الدكتور هلال عبد الوهاب مدير مستشفى القناطر فطلب منه قراءة القرآن في فيلته طوال شهر رمضان.

قرأ الشيخ عبد العاطي ناصف في المناسبات وذاعت شهرته، ومن ثم شجعه البعض على التقدم لاختبارات الإذاعة لاعتماده قارئًا بها، إلا أنه تراجع في بادئ الأمر خوفًا من الفشل وعدم القدرة على اجتياز الامتحان الذي يوصف بالصعوبة دائمًا، إلا أنه بعد طول تردد قرر التقدم للإذاعة بعد أن أعد نفسه جيدًا لكي يكون على قدر صعوبة الاختبارات، وكان ذلك في إلوم التاسع من شهر أبريل ١٩٧٤م، واستطاع أن

يجتاز الاختبارات، وبالفعل تم اعتماده بالإذاعة وسجل لها العديد من التسجيلات تلاوة كانت أم ابتهالات.

انتكاسة وعودة

يذكر أن الشيخ عبد العاطي ناصف قبل أن يكمل الشيخ عامه الخامس والعشرون تزوج ورزقه الله تعالى من الأبناء بعبد الخالق وحسن وأحمد وحسين وزينب وهدى، فابنه حسين الذي ورث عنه حسن الصوت وروعة التلاوة فاتجه بدوره إلى قراءة القرآن الكريم عقب انتهاءه من دراسته الجامعية وحصوله على بكالوريوس التجارة، وانضم إلى نقابة القراء التي يعد والده من أكبر أعضاءها سنًا.

كان الشيخ عبد العاطي ناصف يقرأ القرآن في مستهل حلقات برنامج العلم والإيمان، الذي كان يقدمه بالتليفزيون المصري مرزوق هلال، وذلك منذ عام ١٩٧٩م وحتى منتصف التسعينيات، وفي عام ١٩٨٨ فاز بالمركز الأول في مسابقة حفظ القرآن الكريم، وقرأ في الاحتفال بليلة القدر، وكرمه الرئيس محمد حسني مبارك بآداء فريضة الحج.

وتم اختياره قارئًا لبعثة وزارة الأوقاف، كما قرأ قي الاحتفال بالمولد النبوي في حضور الرئيس محمد حسني مبارك، وأيضًا في الاحتفال بيوم الدعاة، وقرأ أيضًا في الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج في عام ١٩٩٩م، وذلك بدعوى من رئاسة الجمهورية.

ولكنه للأسف أصيب بانتكاسة على صعيد العمل عقب وفاة ابنه حسن في عام ١٩٨٢م أثناء دراسته بالفرقة الثالثة بكلية أصول الدين، حيث قرر الشيخ الهروب إلى عالم التصوف الذي كان يميل إليه في صغره، واندمج مع آل البيت وأهل الطرق

الصوفية، ولازم مساجد أولياء الله الصالحين كالسيدة زينب والسيدة عائشة والإمام الشافعي رضي الله عنهم جميعًا، واستقر في مسجد الشبراوي، وكان لا يخرج إلا مرتين في الشهر لرؤية أسرته، استمر على هذا الحال حتى عام ٢٠٠٠م، ذلك العام الذي شهد عودته إلى الساحة مرة أخرى.

وكثيرًا ما ذكر الشيخ عبد العاطي ناصف أنه يتجلى عندما يقرأ القرآن كلام الله، إلا أنه يصاب بحالة من التجلي والروحانية التي تخرجه من نطاق البشر إلى عالم التصوف الخلاب عندما يقرأ قوله تعالى: " يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب" (الآية ١٠٩ من سورة المائدة).

الشيخ محمد الهلباوي

مبتهل أبا عن جدا

"الإنشاد الديني في مصر بدأ في الانقراض بعكس الدول العربية الأخرى، التي بدأت بدورها تسحب البساط من تحت أقدام المصريين، فإنه في المغرب الآن يوجد ما يربو عن ١٥ فرقة إنشاد، وفي سوريا يتجاوز العدد ٢٠، وحتى دولة روسيا أصبح لدبها ٣٠ فرقة، فضلًا عن وجود مدارس للإنشاد الديني هناك، وفي الوقت الذي لا يوجد فيه لدينا مدرسة واحدة لهذا النوع من الفن تعلم الشباب الثقافة الفنية الأصيلة" .. هكذا يرثى الشيخ محمد الهلباوي أحد رواد فن الإنشاد الديني في هذه الآونة فن الإنشاد الديني في مصر.

ولد الشيخ محمد الهلباوي في فبراير ١٩٤٦ بباب الشعرية القابعة وسط العاصمة المصرية القاهرة، والقريبة في ذات الوقت من منطقة القاهرة الفاطمية، حيث المساجد الفاطمية الكبرى، التي يقام بها إلى الآن حفلات الإنشاد الديني وخاصة خلال أيام شهر رمضان، وهو أيضًا ينسب إلى عائلة "الهلباوي" صاحبة الأصول العريقة في مجال فن الإنشاد، فالجد الشيخ الهلباوي محفظ القرآن بأحد كتاتيب قرية "ميت كنانة" بمحافظة القليوبية، وأحد كبار منشدي القرية في ذلك الوقت.

هكذا، ورث الحفيد عن جده تركة تبدأ بالصوت النديّ وتنتهي بحب الإنشاد والعمل به، والأمر لم يقف فقط عند حد الوراثة بل كبر وترعرع، حيث تربى الهلباوي في حضن الكتاتيب والأزهر الشريف، وتخرّج ليسجل نفسه بالإذاعة كمنشد، إذ كان

وقت تقدمه لها عام ١٩٧٨ مكتفية من القراء، فتم اختياره في الابتهالات والتواشيح، وقبلته الإذاعة من اللجنة الأولى، حيث كانت إذاعة القرآن الكريم في الماضي تقدم المبتهلين والمنشدين من كل القطر المصري، حيث كان هناك تقليد بأن تتم إذاعة صلاة الفجر في كل يوم من أحد المساجد، وتستضيف الإذاعة المبتهلين من كل المحافظات، فيتعرف علىهم الناس ويسمعونهم ويتعرف المشايخ بعضهم ببعض.

تمييز مدبر

أما الآن، فلقد تقلص الوقت المخصص للإنشاد قبيل الفجر إلى ٤ دقائق بدلًا من ١٢ دقيقة، وأصبح الوقت المخصص لنقل صلاة الفجر كله لا يتجاوز ٤٥ دقيقة، تتضمن الأذان والإقامة والصلاة وتلاوة القرآن والابتهال، حتى إنهم حذفوا الوقت المخصص لتلاوة القرآن ما بين الأذان والإقامة، وهذا كله ساهم بشكل كبير إلى هروب المنشدين إلى ساحات أخرى للعمل فمنهم من تخصص في التلاوة وآخرون تخصصوا في الغناء.

إلا أن محمد الهلباوي لم يكتف بعمله كمنشد ومبتهل في الإذاعة، بل كما دراسته للموسيقى في القسم الحر بمعهد الموسيقى العربية، حتى أصبح مدرسًا لمادتي فن التجويد، وفن الإنشاد والمقامات الموسيقية في "مركز الحفني للدراسات الموسيقية"، الذي تتولى إدارته الناقدة الفنية الكبيرة د. رتيبة الحفني.

استطاع الشيخ الهلباوي أن ينمي قدراته المتمثلة في قوة الأداء وحسن الصوت وذلك بالدراسة الأكاديمية ليكون صاحب موهبة وخبرة علمية في ذات الوقت تؤهله لكي يكون أجدر المبتهلين في هذا الوقت، وصاحب أحد أهم فرق الإنشاد الديني في مصر، خاصة وإنه يجيد استخدام الموسيقى في الإنشاد، وربما تلحظ ذلك عند حضورك لأية حفلة يقوم بالإنشاد فيها، فالإنشاد الديني عنده لا تصاحبه موسيقى

إلا الدفّ، أما استخدام الناي والعود فمحدود، ومهمته جذب أذن السامع، والأصل في الإنشاد الاعتماد على صوت المنشد.

موهبة ودراسة

ليس هذا فحسب، بل تساعده دراساته الموسيقية على اختيار اللحن بشكل يساعده على الإتقان والجودة في الأداء، وفي ذلك يقول: "ليس هناك لحن ثابت، وإنما اختيار المقام المناسب للكلمة، فالصيغة اللحنية تكون على حسب الكلمة وبحر الشعر والقافية، لذا ليس هناك ملحّن لي، وإنما كل أعمالي من ألحاني، عدا ما أخذت من الرعيل الأول وعلى رأسهم الشيخ "علي محمود"، والشيخ "زكريا أحمد"".

ورغم الرأي المحافظ الذي ينتهجه الشيخ فقد كانت له تجربة رائدة في الإنشاد عام ١٩٩٨، حينما أنشد من التراث الصوفي على السيمفونية رقم ٤٠ لـ"موتسارت" أثناء استضافته في مهرجان موسيقي "موتسارت" بأوبرا مرسيليا، وفي المقابل فإنه لا توجد مدرسة نظامية لتعليم أصول فن الإنشاد، رغم أن الشيخ "محمد الهلباوي" نادى أكثر من مرة بضرورة تأسيسها، ولو من خلال برنامج تليفزيوني يلقن السامعين أصول الإنشاد الديني وطرقه، ومن ثم تعاني ساحة الإنشاد من ندرة الأصوات الجديدة الجيدة، نظرًا لأن الإنشاد يحتاج لبراعة نادرة في التنقل بين المقامات، وموهبة في استخدام الصوت بين درجات أنغام المقام، وهذا ما يفتقر إليه جيل اليوم من الشباب إلا ما ندر.

خمسة أشكال

الإنشاد الديني وفق الشيخ محمد الهلباوي، هو ذلك الفن الغنائي، الذي يظهر في خمسة أنواع، أولها، الإنشاد الصوفي، وتكون الغلبة فيه لأشعار الفصحى، وهو لون من الإنشاد بدأ من ١٤٠٠ عام، منذ بداية البعثة المحمدية، فعندما هاجر الرسول من مكة إلى المدينة المنورة استقبله بنو النجار والأنصار بالقصيدة المشهورة "طلع

البدر علينا"، وحينما كان المسلمون يشيدون مسجد "قباء" أول مسجد بني في الإسلام، كان الرسول يشاركهم عملية البناء، وكان الصحابة يقولون: "لئن قعدنا والرسول يعمل .. فذاك منا العمل المضلل"، وعندما كان الصحابة يحفرون الخندق في غزوة الأحزاب، كانوا ينشدون كلمات الصحابي عبد الله بن رواحة: "اللهم لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا .. فأنزلن سكينةً علينا، وثبت الأقدام إن لاقينا"، وكان مجلس الرسول ﷺ يشهد الشعراء، ومنهم كعب بن زهير وحسان بن ثابت وغيرهم.

وثانيها، التواشيح الدينية، مثل التي كان يقدمها الشيخ طه الفشني وبطانته، والبهتيمي وبطانته، وغيرهم من المبتهلين الذين يلقون هذه التواشيح الدينية، وثالثها، الإنشاد المنفرد، وهو الذي يسمى بالابتهالات الدينية، كتلك التي يقدمها الشيخ سيد النقشبندي، والشيخ نصر الدين طوبار، وهو يعتمد على الارتجال الفوري أثناء إلقاء القصيدة، ورابعها، الغناء الديني، وهو ملحن من متخصصين في الألحان، ومن ذلك: الشوقيات مع أم كلثوم والسنباطي مثل ":ولد الهدى"، وأخيرا ؟ والكلام للشيخ الهلباوي ؟ خامسها، المديح الشعبي الديني الموجود في جنوب مصر وشمالها في الدلتا، وعلى المنشد أن يتبع ويلم بكل الأقسام لتكوين ثقافته الدينية.

وكذلك للشيخ محمد الهلباوي رأي جريء في الجدل القائم بين اللغة الفصحى والعامية، حيث يرى أنه من الممكن أن نفهم هذا الجدل في سياق مدى تذوق المستمع للفظ الفصيح، ومن ثم استخدامه له، ولا يمكننا فصل استخدام الشيخ الهلباوي للفصحى عن المناخ العام الذي تربت فيه ذائقة الشيخ، منذ الأربعينيات وحتى الستينيات، ذلك المناخ كانت الأغاني فيه تستعين بكلمات وقصائد فصيحة لكبار الشعراء، بينما تنتمي ثقافة "على" لمناخ عام يسرف في استخدام العامية ويبتكر ألفاظ عامية جديدة قد لا يستسيغها الكبار.

مكمل الكلم

هكذا، فالنغم مكمل للكلم –كما يقول الشيخ الهلباوي– حلاله حلال وحرامه حرام، فإذا كان يبعث على رقي الأخلاق وتحسين علاقة الإنسان بربه ومن حوله من البشر؛ فهو حلال، أما إذا كان يبعث على تلبية غرائز الأرض وشهوات النفس والبعد عن الواجبات الدينية؛ فهو حرام.

يعد الشيخ محمد الهلباوي واحد من القلائل الذين يحملون هموم الإنشاد الدني في مصر، حيث يحرص دائمًا على دعوة المسئولين للارتقاء به ووضع الخطط والبرامج التعليمية؛ لتحقيق هذا الهدف، وإن كان يعلن مرارًا وتكرارًا أنه حتى الآن لا توجد أي خطط، ولكن علنا نحن كمختصين في الإنشاد مراجعة أنفسنا، وتكثيف جهودنا للعمل على إرساء ونشر هذا الفن في جميع أرجاء الوطن خاصة أن مصر هي صاحبة الريادة منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى أواخر القرن العشرين.

ويذكر دائمًا أنه قد تخرج في المدرسة المصرية عمالقة الغناء العربي والديني الذين نذكر منهم الشيخ سلامة حجازي الذي أسس المسرح الغنائي عام ١٩٠٥، وتلاه الشيخ سيد درويش وأبو العلا محمد، الذي كان أستاذًا لأم كلثوم، والشيخ درويش الحريرى وزكريا أحمد، الذي استعانت به أم كلثوم في فترة من أهم فترات حياتها الفنية، وغيرهم من أساتذة الإنشاد الديني في مصر، كان أخرهم الشيخ سيد مكاوي، الذي ترك بصمة في الغناء الراقي الأصيل، فكيف لبلد كانت تملك كل هؤلاء العباقرة لا تملك الآن واحدًا فقط مثلهم؟!

الشيخ محمد عمران

صوت يسكنه الخشوع ويغلب عليه الصفاء

الابتهال هو أغنى أنواع الأداء الموسيقي سواء في المقامات أو أسلوب الأداء، فهو يعتبر مصدرًا للتعلم، حيث استقى كل من الشيخ أبو العلا محمد وسلامة حجازي وزكريا أحمد وسيد درويش وأم كلثوم معطيات الموسيقى ومفرداتها من معين الابتهال الديني.

إلا أن هذا الفن الأصيل يعاني هذه الأيام حالة من الاضمحلال، تلك التي ترجع في مجملها إلى أنه لم يعد هناك من المناسبات ما يستوجب أداء الابتهال بالإضافة إلى التغير الثقافي من إزاحة وإحلال فبدلًا من مدرسة المشايخ كمدارس الموسيقى والمقامات التي بني أركانها الشيخ المسلوب والمنيلاوي وأبو العلا محمد زكريا أحمد وقبل ذلك كله مدرسة شيخ الموسيقيين العرب عبده الحامولي، وحل الآن محل هذه المدارس المعاهد الموسيقية والمساحات الضيقة في وسائل الإعلام المختلفة وإن وجد شيء فهو مبتسر ومجزأ وغير متقن، ربما لضعف الإنفاق عليه لقلة الموارد أو رغبة من القائمين على شغل مساحة بدون السعي وراء التفنن في هذا الأمر.

فالأمر للأسف على صعيد فن الابتهال خاصة في شقه المصري، يسير من سيء إلى أسوأ، فالوجوه المبدعة تغيب ربما هروبًا من هذا الساحة التي يصعب البقاء فيها لقلة المشجعين وندرة الكسب من وراءها أو لانتقال هذه الرموز إلى الآخرة، فموت الكبار بات يهدد هذا الفن بالاندثار، وإن كان التراث المصري لا يزال شاهدًا على أن المدرسة المصرية هي أكثر المدارس العربية تفردًا في هذا المجال.

ومن الرموز والرواد في هذا الإطار، يقف الشيخ محمد عمران بما تركه من تسجيلات رائعة تعد خير شاهد على الدور المصري في النهوض بفن الابتهال، فهذا الشيخ الكفيف استطاع أن يحفر لنفسه مكانة متميزة في زمن كانت ساحة التلاوة والإنشاد والابتهال الديني تعج بالرموز والعلامات المميزة، حيث الشيخ طوبار والنقشبندي والفشني وغيرهما، إلا أن الإصرار كان مطية الشيخ عمران لإدراك النجاح ليس بعضه بل كله.

صوت مؤثر

الشيخ محمد عمران كان ضريرًا أعمى لا يرى، والله أعطاه نعمة هذا الصوت القوي المؤثر، وكان يتردد على المساجد ينشد ويبتهل ويقرأ القرآن بصوته العميق، قراره واسع وواضح، وجوابه صافي وعالي، غير ذلك كان متمكنًا من الأداء والقفلات الموسيقية، التي تسحب النفس إلى سماعه والإنصات له، وأيضًا كان لدبه قدرة عجيبة على التحويل بصوته إلى مقامات كثيرة.

ولد محمد عمران بإحدى قرى مركز طهطا بمحافظة سوهاج جنوب مصر في اليوم الخامس عشر من شهر أكتوبر في عام ١٩٤٤م، وكعادة أهل الصعيد بمجرد أن أكمل هذا الطفل سن الرابعة دفعته الأسرة إلى كتاب الشيخ محمد عبد الرحمن المصري، لكي يبدأ رحلته مع حفظ كتاب الله، وفي هذه الآونة عرف عن هذا الطفل الكفيف القدرة الواسعة على الحفظ إضافة إلى حسن التلاوة والتجويد، فقدراته الصوتية كانت أكثر من رائعة.

أتم الطفل الصغير محمد حفظ القرآن في سن مبكرة، وقام بمراجعته أكثر من مرة على يد شيخه "المصري" حتى نال منه إجازة تلاوة القرآن، وهنا قرر الشيخ عمران أن يتجه إلى شيخ آخر يتولى تعلمه فنون وقواعد تجويد الآيات المحكمات، ومن ثم لم يجد أمامه خير من الشيخ محمود ضبوط، الذي التزم معه طيلة شهور عدة

حتى أتقن على يده قواد التجويد وذلك كله قبل أن يكمل عامه الثاني عشر، وكان في ذلك إعجازًا كبيرًا، أن يحفظ القرآن ويتعلم أحكام التلاوة والتجويد في هذه السنوات القليلة.

عقب انتهاء الشيخ محمد عمران من حفظ القرآن وإتقان قواعد تلاوته وتجويده قرر الانتقال للعيش في القاهرة، حيث الأضواء والشهرة والقرب من علية القوم، وفي القاهرة دله أحد الأصدقاء إلى معهد المكفوفين، الذي تقدم له ودرس فيه حتى التخرج، ودام بقاءه في هذا المعهد قرابة أربعة سنوات، استطاع أن يعظم خبراته فيها، سواء على صعيد العمل أو قدرات التلاوة والتجويد، وخلال هذه الفترة اشتهر بين زملاءه بحسن التلاوة والتجويد.

الانتقال إلى القاهرة

وكذلك حرص الشيخ عمران خلال فترة تواجده بالمعهد على تعلم القرءات ودراسة النغمات والمقامات الموسيقية على يد كبار الموسيقيين في هذه الآونة، كما عكف على تعلم الموشحات الدنية وفن أداء الإنشاد الديني، وذاع صيته في هذه الآونة وتقرب من وسط الفنانين والمبتهلين وتعرف في هذه الآونة على رفيق دربه الشيخ سيد مكاوي، أحد أهم مجددي الموسيقى العربية في النصف الثاني من القرن العشرين.

تم تعيين الشيخ عمران عقب تخرجه من معهد المكفوفين بشركة حلوان للمسبوكات، حيث جعلته قارئًا للقرآن الكريم بالمسجد الكائن بموقع الشركة، وذاع صيته وانتشرت شهرته بين العمال، وبدأ العمال يقفون بجانبه وذلك بفتح أبواب الرزق له ومساعدته على التعرف على كل ما يمكن أن يساعده، في مشواره مع التلاوة والتجويد، حيث كان يحلم دائمًا أن يكون قارئًا أو مبتهلًا كبير في الإذاعة المصرية، ودائمًا كان يعلن أن الشيخ محمد رفعت هو قدوته في هذا المضمار.

هكذا، وبمساعدة بعض عشاق صوت الشيخ محمد عمران، تقدم في بداية السبعينات لاختبارات الإذاعة لاختيار المبتهلين، وبالفعل تم اعتماده مبتهلًا للإذاعة، فشدا لها بأروع الكلمات وأجمل الألحان، حتى صار في عقد الثمانينات أحد أهم مبتهلي الإذاعة المصرية، وفي هذه الآونة توطدت علاقته بكل من الموسيقار محمد عبد الوهاب، الذي لحن له العديد من الأعمال، كما تشعبت علاقته بالموسيقار الكفيف أيضًا سيد مكاوي، وربطته علاقة حميمة أيضًا بالموسيقار حلمي أمين.

موسيقار الأجيال

ويذكر أن الموسيقار محمد عبد الوهاب كان من المحبين لسماع ابتهالات الشيخ عمران لما كان يرى فيها من موهبة فذة وقدرة فائقة على الانتقال من مقام موسيقي إلى آخر، وربما يجد ذلك جليًا كل من يسمعه في ابتهال "يا سيد الكونين" الذي يصاحبه في أداءه الموسيقار المعروف عبده داغر بالعزف على الكمان، ويتولى الكمان أمير عبد المجيد، أما العود فيمسك بناصيته في هذا الإبتهال الرائع مدثر أبو الوفا، أما التشيلو فيتولاه خالد داغر، وهكذا يكتمل الإبداع على أصوله في هذا الابتهال، لتوافر جميع أركان الغناء المصري التقليدي فيه، من مطرب متمكن يغني الموال بشكل معجز وتخت آلات فردية تقليدية ومصاحبة جيدة، وأيضًا التحويلات والسكك المقامية المختلفة داخل الغناء والعزف، وعنصر المطيباتية كان موجودًا حيث تسمع التعليقات المرحة والمتقاعلة أيضًا، ولا ننسى أن المطرب هنا شيخ وهذا ركن تقليدي مهم.

أنشد الشيخ عمران في العديد من البرامج الغنائية الدينية، كما قدم العديد من الابتهالات سواء في الاحتفالات التي اعتاد المصريون عليها كالمولد النبوي وموالد آل البيت وفي الأمسيات والمناسبات التي أقيمت في دار الأوبرا المصرية، فقد كان

للشيخ أثر بالغ على النفوس المؤمنة الخاشعة لذكر الله، فما أجمل آذان في المسجد الحسيني، وما أروع الاستماع إلى ابتهالاته في هذا المشهد المبارك.

قدم الشيخ محمد عمران مجموعة من التسجيلات في الإذاعة المصرية وإذاعة أبو ظبي وإذاعة عمان وإذاعة البحرين، لا تزال هذه الإذاعات تحرص على بثها عبر أثيرها لتكون مسكن للنفوس من كل الآلام التي تتملك منها وهي كثيرة، ولم يغادر مصر إلا عندما سافر إلى الممكلة العربية السعودية لأداء فريضة الحج.

رزق الشيخ محمد عمران من الأبناء محمود وعلي ورحاب وأسماء، حرص على تقربهم من القرآن كلام الله، ودفعهم لحفظه كل على قدر استطاعته، وفي الثالث من شهر أكتوبر عام ١٩٩٤م انتقل الشيخ محمد عمران إلى جوار ربه إلى الدار الآخرة تاركًا وراءه مجموعة من التسجيلات الخالدة.

(من ابتهالاته)

– الله ربي للهدى يهديني– جميل العفو – أمنت بالله – الله ربي – الليل أقبل – الله ربي – اللطف الخفي – العفو منك – آمنت بالله رب العرش – آمنت بالله خالق الأكوان – إلـهي – إله الكون أنت لنا معين – النور أشرق – تسبح لله كل الخلائق – ترقرق همسي – بشرى لأمنة – بجلال ذاتك – أنت السلام – ربي إلـك توددي – ذو رأفة بالمؤمنين – حب الله – جميل العفو منك – جل من – قد حل حبك – في ليلة رائعة جدًا –عنت الوجوه – عنت الوجوه ٢ – عبدك الجاني – من ذا سواك – أدعو – ما عبدت سواك – لك لا لغيرك يا إلهي أخشع – كلنا يا رب أخطاء – يا رسول الله طال بي الحنين – يا ربنا الغفور – وفي الخيرات – من يكشف الضر.

محمد محمود الطبلاوي

الشيخ القارئ المبتهل

"صلاة الله ربي ذي الجلال" .. "يا سيد الكونين" .. "أسير الخطايا" .. "صلوا يا أهل الكمال" .. "إلهي قد فعلت الذنب جهلا" .. ابتهالات رائعة للشيخ محمد محمود الطبلاوي هذا القارئ النجم الساطع في عالم التلاوة والابتهال والتجويد أيضًا، ولماذا لا ما دام الهدف واحد وهو خدمة الإسلام، فالتلاوة والتجويد والابتهال كلها أدوات تهدف في مجملها لرفع هامة الإسلام ونشر مبادئه القويمة، وهذا ما استطاع الطبلاوي أن يؤكد عليه.

ولد محمد محمود الطبلاوي – نائب نقيب القراء المصريين وقاريء مسجد الجامع الأزهر الشريف ؟ في الرابع عشر من شهر نوفمبر في قرية ميت عقبة بمركز إمبابة التابعة لمحافظة الجيزة، وفي هذه الأثناء كانت ميت عقبة قرية صغيرة قريبة جدًا من ضفاف نيل مصر الخالد، وكان أهم ما يميزها آنذاك انتشار الكتاتيب والاهتمام بتحفيظ القرآن الكريم بصورة لم نعهدها الآن، هكذا ذهب به والده الحاج محمود إلى كتاب القرية؛ ليكون من حفظة كتاب الله عز وجل لأنه ابنه الوحيد.

مشوار الشهرة

عرف الطفل الموهوب محمد محمود الطبلاوي طريقه إلى الكتاب، وهو في سن الرابعة مستغرقًا في حب القرآن وحفظه فأتمه حفظًا وتجويدًا في العاشرة من

عمره، فكانت بداية شاقة وممتعة بالنسبة للفتى المحب لكتاب الله عز وجل، والذي لم يرض عنه بديلا، وهذا ما فعله له والده الذي كان يضرع إلى السماء داعيًا رب العباد أن يرزقه ولدًا؛ ليهبه لحفظ كتابه الكريم وليكون من أهل القرآن ورجال الدين، وبالفعل استجاب الخالق القدير لدعاء عبده الفقير إليه، ورزقه بمولوده الوحيد، ففرح بمولده، لا لأنه رزق ولدًا فقط وإنما ليشبع رغبته الشديدة في أن يكون له ابن من حفظة القرآن الكريم، لأنه كان يوقن أن القرآن هو التاج الذي يفخر كل مخلوق أن يتوج به، لأنه تاج العزة والكرامة في الدنيا والآخرة.

وبعد أن حفظ الطبلاوي القرآن كاملًا بالأحكام لم يتوان لحظة واحدة في توظيف موهبته، التي أنعم الله بها عليه فلم يترك الكتّاب أو ينقطع عنه، وإنما ظل يتردد عليه بانتظام والتزام شديد ليراجع القرآن مرة كل شهر، وبدأ قارئًا صغيرًا غير معروف كأي قارئ، وشق طريقه بالنحت في الصخر وملاطمة أمواج الحياة المتقلبة، فقرأ الخميس والأربعين والرواتب والذكرى السنوية وبعض المناسبات البسيطة، كل ذلك في بداية حياتي القرآنية قبل بلوغي الخامسة عشرة من عمره، وكان راضيًا بما يقسمه الله له من أجر، والذي لم يزد على ثلاثة جنيهات في السهرة، ولما حصل على خمسة جنيهات تخيل أنه بلغ المجد ووصل إلى القمة.

بدأ الشيخ محمد محمود الطبلاوي مشوار الشهرة مبكرًا، إلا أنه لم ينس كل من قدم له نصحًا وإرشادًا وتوجيهًا، ودائمًا يذكر من تسببوا في إثقال موهبته في الحفظ والتجويد بكل خير، فيقول: "دائمًا أتحين الفرصة التي أخلو فيها مع نفسي، وأتذكر بدايتي مع القرآن ونشأتي وأول خطواتي على درب الهدى القرآني، وما وصلت إليه الآن فأشعر أنني مدين بالكثير والكثير لكل من هو صاحب فضل علي بعد ربي العلي القدير، فأدعوا لوالدى ولسيدنا رحمهما الله ولزملائي، الذين شجعونني واستمعوا إلي وأنا صغير وجعلوني أشعر بأنني قارئ موهوب وأتذكر قول شيخي الذي حفظني القرآن "يا محمد أنت موهوب وصوتك جميل جدًا وقوي معبر".

عشرة محاولات

قرأ الشيخ محمد محمود الطبلاوي القرآن وانفرد بسهرات كثيرة وهو في الثانية عشرة من عمره ودعى لإحياء مآتم لكبار الموظفين والشخصيات البارزة والعائلات المعروفة بجوار مشاهير القراء الإذاعيين قبل أن يبلغ الخامسة عشرة، واحتل بينهم مكانة مرموقة فاشتهر في الجيزة والقاهرة والقليوبية، وأصبح القارئ المفضل لكثير من العائلات الكبرى نظرًا لقوة أدائه وقدراته العالية وروحه الشابة، التي كانت تساعده على القراءة المتواصلة لمدة زمنية تزيد على الساعتين دون كلل، ولا يظهر عليه الإرهاق بالإضافة إلى إصرار الناس على مواصلته للقراءة شوقًا للمزيد من الاستماع إليه؛ لما تميز به من أداء فريد فرض موهبته على الساحة بقوة، وساعده على ذلك حرصه الشديد على صوته وصحته مع المواظبة على مجالسة مشاهير القراء والاستماع إليهم مباشرة، وعن طريق الإذاعة أمثال الشيخ رفعت والشيخ علي محمود والشيخ محمد سلامة والشيخ الصيفي والبهتيمي ومصطفى إسماعيل وغيرهم من قراء الرعيل الأول بالإذاعة.

يعد الشيخ الطبلاوي أكثر القراء تقدمًا للإلتحاق بالإذاعة كقارئ بها، وقد يحسد على صبره الجميل الذي أثبت قيمةً ومبدءًا وثقةً في نفس هذا القارئ المتين بكل معاني هذه الكلمة، ولم يتسرب اليأس إلى نفسه، ولم تنل منه أي سهام وجهت إله، وإنما تقبل كل شيء بنفس راضية مطمئنة إلى أنّ كل شيء بقدر، وأنّ مشيئة الله فوق مشيئة البشر، تقدم تسع مرات للإذاعة ولم يأذن الله له، وفي المرة العاشرة اعتمد قارئًا بالإذاعة بإجماع لجنة اختبار القرّاء، وأشاد المختصون بالموسيقى والنغم والانتقال من مقام موسيقي إلى مقام آخر بإمكاناته العالية، وحصل على تقدير "امتياز".

سجل الشيخ محمد محمود الطبلاوي الرقم القياسي من حيث سرعة الشهرة والصيت والانتشار، وكأنه أراد أن يتحدث إلى من يهمه الأمر بلغة قرآنية وإمكانات صوتية فرضت على الدنيا اسمًا جديدًا أراد أن يترجم الصبر إلى فعل وعمل؛ فحقق من الشهرة خلال نصف ساعة ما لم يحققه غيره في ثلاثين عامًا، لأنه صبر ٩ سنوات كان يتقدم فيها للإذاعة ولا يعتمد قارئًا، فكانت الفترة ما بين ١٩٧٥ وحتى ١٩٨٠ بمثابة غزو مفاجيء من الشيخ الطبلاوي فاحتل المقدمة مع المرحوم الشيخ عبد الباسط الذي أعطاه الجمهور اللقب مدى حياته.

مواقف لا تنسى

يقول محمد محمود الطبلاوي: تعرضت لمواقف شديدة المرارة على نفسي وكان من الممكن أن يقضي عليّ كقارئ ولكن الله سلّم، هذا الموقف أنقذتني منه عناية السماء وقدرة الله، وهذا الموقف حدث عندما كنت مدعوا لإحياء مأتم كبير بأحد أحياء القاهرة المهتم أهله باستدعاء مشاهير القراء، وكان السرادق ضخمًا والوافدون إليه بالآلاف، وكان التوفيق حليفي والنفحات مع التجليات جعلتني أقرأ قرآنًا وكأنه من السماء، وأثناء استراحتي قبل تلاوة الختام جاءني القهوجي، وقال تشرب فنجان قهوة يا شيخ محمد؟ قلت له: إذا ما كنش فيه مانع، وبعد قليل أحضر القهوة ووضعها أمامي على الترابيزة، فانشغلت ونسيتها، فقال لي صاحب الميكروفون القهوة بردت يا شيخ محمد، فمددت يدي لتناولها فجاءني صديق وسلّم علي، وبدلًا من وضع يدي على الفنجان صافحت الرجل، وانشغلت مرة ثانية وأردت أن أمد يدي، فشعرت بثقل بذراعي لم يمكنني من تناول الفنجان.

ويواصل الطبلاوي: فجأة، جاءني صاحب المآتم، وطلب مني القراءة فتركت القهوة، ولكن صاحب الميكرفون شربها، وبعد لحظات علمت أنه انتقل بسيارة الإسعاف إلى القصر العيني، وبفضل من الله تم إسعافه ونجا بقدرة الله، وهكذا

تدخلت عناية السماء مرتين الأولى عندما منعتني القدرة من تناول القهوة، والثانية نجاة الرجل بعد إسعافه بسرعة، وهذا الموقف حدث لي بعد التحاقي بالإذاعة ووصلت إلى المكانة التي لم يصل إليها أحد بهذه السرعة.

ومن المواقف التي لا ينساها الشيخ محمد محمود الطبلاوي أيضًا، ذلك التي تعرض له أثناء سفره إلى الهند ضمن وفد مصري ديني بدعوة من الشيخ أبو الحسن الندوي، وكان رئيس الوفد المرحوم الدكتور زكريا البري وزير الأوقاف في ذلك الوقت، وحدث أن تأخر عن موعد حضور المؤتمر المقام بجامعة الندوة بنيودلهي، وكان التأخير لمدة نصف ساعة بسبب الطيران، وبذكاء قال د. البري: الوحيد الذي يستطيع أن يدخل أمامنا، هو الشيخ الطبلاوي لأنه الوحيد المميز بالزي المعروف، ولأنه مشهور هنا بما له من مكانة قرآنية، وربما يكون للعمة والطربوش دور في الصفح والسماح لنا بالدخول، وحدث ما توقعه د. البري، فالمفاجأة أن رئيس المؤتمر وقف مرحبًا، وقال بصوت عال: "حضر وفد مصر وعلى رأسهم فضيلة الشيخ الطبلاوي، فلنبدأ احتفالنا من جديد، وكانت لفتة طيبة أثلجت صدر الوزير، لأن الندوة كانت تجمع شخصيات من مختلف دول العالم".

تم تكريم الشيخ محمد محمود الطبلاوي مرات كثيرة ومن بلدان عديدة غير مصر نظرًا لدوره الرائد في خدمة الإسلام بما منحه الله تعالى من صوت مميز وقدرة موسيقية عالية تبدو جليّة في تلاواته وابتهالاته، حيث حصل على وسام من لبنان في الاحتفال بليلة القدر، ورغم السعادة والفرحة التي لا يستطيع أن يصفها بهذا التقدير إلا أنه يقول : "إني حزين لأنني كرمت خارج وطني ولم أكرم في بلدى مصر أم الدنيا ومنارة العلم وقبلة العلماء"، إلا أنه في ذات الوقت يمكن الجزم بأن تكريم الطبلاوي في مصر يأتي كل يوم ممن يبهرون بأدائه ويسعدون بتلاواته وابتهالاته.

العطواني

منشد بردة البوصيرى زاهد الأضواء والشهرة

عندما قال المؤرخ "هيرودوت" مقولته المشهور: "مصر هبة النيل"، لم يكن مخطئًا إلا أنه مع مرور الزمن صار لمصر نهران، أولهما، الذي يمدها بالعطاء والنماء ومن ثم الماء، وثانيهما، الذي يمدها بعدد لا حصر له من مقرئي القرآن الكريم ومنشدين الشعر الصوفي ومادحي الرسولﷺ وبالتالي مثلما يمكن القول بأنها مصر هي بلد النيل وهبته، فهي في ذات الوقت دولة التلاوة والإنشاد والابتهالات والتواشيح، وربما يكون ذلك مدعاة لكي تنصب السرادقات وتبني المسارح في كل مناسبة دينية وخاصة ذكرى ميلاد النبي محمد ﷺ في مختلف مدن وقرى ونجوع مصر، لتقام الاحتفالات الدينية ومن ثم يولد مبتهل ومنشد جديد، وعلى حسب حظه من الدنيا يكون قدر معرفة الناس به وشهرته بين محبي هذا الفن، فكثيرًا ما توجد الموهبة إلا أنه لأسباب أو لأخرى يظل المنشد أو المبتهل بعيدًا عن أعين الإعلام فيظل حبيس الإقليم الذي يحيط به.

وخير نموذج لهذا الأمر الشيخ عبد العظيم العطواني منشد قصيدة البردة المعروفة؛ إحدى أشهر قصائد المديح النبوي، إن لم تكن أشهرها جميعًا، تلك القصيدة التي بوأت لصاحبها شرف الدن البوصيرى – بما حظيت به من مكانة لا تنافسها فيها سوى البردة الأم لكعب بن زهير إمامة فن المدائح النبوية، وقد اقترن

العطواني بها، فصار لا يعرف إلا بها ولا ينشدها إلا هو، ولولا بعده عن وسائل الإعلام وإصراره على البقاء في صعيد مصر لكان من أشهر المنشدين.

مدارج العلم

اسمه عبد العظيم أحمد سليم، وشهرته عبد العظيم العطواني؛ نسبة إلى قرية العطواني؛ وهي إحدى أشهر قرى مركز "إدفو" بمحافظة أسوان جنوب مصر، التي ولد فيها في السابع من فبراير عام ١٩٤٦م، كانت بدايته في كتاب القرية حيث دفعه والده إليه ليحفظ كتاب الله عز وجل، ذلك الأمر الذي يعد أحد أهم مظاهر التمسك بالدين والعتبة الأولى والأساس نحو مدارج العلم المختلفة، فكانت الخطوة الأولى للشيخ عبد العظيم تعلم أحكام القرآن الكريم وحفظه كاملًا مجودًا في زمن قياسي، ومن ثم لمس شيخ الكتاب إمكانياته، فدفعه إلى أن تكون الغاية والوسيلة هي كتاب الله وأحكام تجويده، وما استتبع ذلك من خطوات تمثلت في ترحاله للاستزادة من دراسته للقرآن حفظًا وتجويدًا وأحكامًا، وكان الشيخ البطيخي الذي تعلَّم على يديه الشيخ محمد صديق المنشاوي أحد أبرز معلمي الشيخ العطواني في فترة صباه.

وكعادة أهل صعيد مصر، معروف عنهم ذوقهم الراقي والرفيع في الاستماع إلى القرآن الكريم والابتهالات الدينية، هكذا كانت الموهبة الفطرية لدى العطواني في تواصله مع كل من يستمع إليه من قراء القرآن، الذي يتمكن من أفئدتهم بإجادته وتجويده، وإعمال الأحكام بمهارة وحرفية يبرزها ما يملك القارئ والمنشد من ملكات صوتية تمكنه من الغوص في بحار القرآن العظيم بسهولة، ومن خلق هذا التواصل بينه وبين القارئ الجيد نوعًا من الحميمية والصداقة؛ بحيث أصبح من الصعب أن يكون مجيدًا إذا فقد هذا التواصل الروحي مع المتلقي، هذا إضافة إلى أن بيئة الجنوب التي يعيش فيها بما تحمله من هدوء واستقرار واطمئنان للنفس ومحبة وتعارف بين الناس ،

وهو ما يصعب أن تجده في مجتمع المدينة ويساعد على تنمية ملكات الاستماع والتذوق.

ومن هنا كانت الحميمية والتواصل بداية الارتباط الدائم بين المنشدين والجماهير؛ وهو ما وعاه الشيخ العطواني جيدًا، والذي لم يضع نصب عينيه الشهرة والانتشار في بداية الأمر؛ بل اهتم بالارتباط العاطفي بجموع المستمعين من أبناء الجنوب، وعلى الرغم من امتلاكه موهبة فريدة وإمكانات صوتية؛ فإنه لم يسع إلى الانتقال للإذاعة والتليفزيون إلا مؤخرًا؛ وفضل عليهما التواصل المباشر مع أحبابه من المستمعين في الجنوب؛ حتى أنه رفض أن يرتحل إلى القاهرة مركز الشهرة والدولة، وفضل أن يوفي بالتزامه مع أبناء قريته، واعتبر ذلك أقوى من أي عقود مكتوبة.

موعد مع العالمية

إلا أنه بعد أن وطد أقدامه عند محبيه وجمهوره، وذاع صيته في مصر كلها خاصة عندما أخذ ينشد بردة الإمام البوصيرى ومن خلال إبداعه في الإنشاد بها، استطاع أن يشق الطريق إلى الإذاعة والتليفزيون، حيث تم اعتماده مبتهلًا بهما دون اختبار بعد أن اجتاز اختبار الجماهير في محافظات الوجهين القبلي والبحري، ومن المحلية انتقل إلى العالمية، متغلبًا بذلك على حدود اللغة واللهجة وجغرافية المكان وابتعاد المسافات، وبالبردة أيضًا عرفه مواطنو الدول العربية والإسلامية والأجنبية، ورغم ذلك كله لم تكن الشهرة غايته أو وسيلته لما كان يريد، وإنما كان هدفه الأسمى على حد قوله هو التواصل مع الأحباب والمريدين بالكلمة الطيبة والسيرة العطرة ، ولعل هذا ما جعل صفوة العلماء ورجال السياسة والحكم يتقربون إليه بالمودة وحسن المعاملة، بل أنه لم ينضم إلى نقابة قراء القرآن الكريم إلا بعد مؤخرًا، عقب انقضاء فترة طويلة من ممارسة القراءة، وكان ذلك منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا.

حين يُسأل العطواني عن مثله الأعلى من قراء القرآن، يقول بلا تردد: "إن مثلي الأعلى هو القرآن ذاته؛ إذ ما من قارئ أجاد كتاب الله إلا كان ممن يحق لي الاستماع إليه، إنني اتعلم من الصغير قبل الكبير في شأن تلاوة القرآن، فالقرآن الكريم حديقة غنّاء تزخر بأطيب الثمار والفاكهة، ولكلٍ مذاق وطعم، ولله الحمد فالجميع حلو المذاق، طيب الطعم، أدامهم الله وأكثر منهم".

ترجع بداية تعارفه مع "نهج البردة"، حينما كان يتعلم في كتاب القرية، حيث كان من عادة شيخ الكتاب حين ينتهي من تعليم التلاميذ أن يختم لقاءه معهم بأنشودة دينية، وكانت قصيدة المديح النبوي للإمام البوصيرى هي تلك الأنشودة التي يرددها التلاميذ كل مرة، فراقت كلماتها للشيخ الصغير وهو في صباه، ولمست موسيقاها ثنايا أذنه، فحفظها عن ظهر قلب، وشجا بها بين التلاميذ دون أن يشعر، وذات مره سمعه شيخه، فقال له: "لقد تملكت منك البردة وتملكت منها، وعشقتها وعشقتك، وامتلأ بها قلبك فخرجت من صوتك، وكأنها لم تخرج من صوت أحد قبلك؛ فأنشدنا بها دائمًا"، ومنذ ذلك التاريخ صارت البردة ملازمة للعطواني مثلما صار هو معروفًا بها، وأصبح لا يقرأ القرآن في احتفال إلا وأتبعه بقصيدة البردة تلبية لطلب السامعين؛ حتى إن بعض هذه الاحتفالات يخصص لسماع البردة فقط.

وبحسب ما نسب لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، أنه سمع ذات مرة العطواني يشدو بالبردة في تفرد ووجْدٍ، فقال له: "كأنما وضع البوصيرى البردة لينشدها العطواني"، وهكذا تشيع بين جمهور هذا المنشد المبتهل وكل محبيه هذه المقولة الصادرة عن أحد أئمة ومجددي الإسلام في العصر الحديث، كذلك زار العطواني ذات مرة المملكة السعودية أثناء تواجد الشعراوي فيها، فالتقى به في مكة المكرمة، فقال له الإمام: "رأيت البوصيرى يقبلك في جبهتك".

رؤية عطوانية

وعن سر عشق الجماهير لسماع البردة، قال الشيخ العطواني في أحد حواراته: "الحق أن الجماهير لا تصبو إلى سماع البردة أكثر من سماع القرآن، ولكن الحقيقة هي أن جلال القرآن وعظمته كانت في إعمال قوله تعالى: "فإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون"، أما قصيد البردة وقد حوت ما حوت من فضائل رسولنا الأعظم في سياق نظمه البوصيرى؛ فلها خصوصية ترتبط بما تتمتع به شعوبنا الإسلامية، وخاصة في مصر من عشق فطري لسيدنا رسول الله ﷺ فحين أبدأ في وصفه وتحس الجماهير به تنقلب الكلمة إلى عاطفة جيّاشة، تهيج مشاعر الكثيرين بالبكاء أحيانًا والاستحسان بطلب الإعادة كثيرًا، وهي مواقف تلقائية تخرج عن دائرة الشعور والحس المدرك، ولعل في هذا السر الأعظم لالتفاف الأحباب حول ما يسمعون من سيرة وحياة وأخلاق خير البرية محمد ﷺ .

لقد أبدع العطواني في إنشاد بردة الإمام البوصيرى فعرف بها وعرفت به، وقد أضاف إليها عذوبة الصوت وجمال الأداء وقوة الإحساس بأبياتها ومفرداتها، وبهذا حفر اسمه بحروف من نور بين جدران جيل العظماء، ليكتب شهادة الانتساب إليهم، وبذلك توج رحلته بتاج الشهرة ووسام التقدير من الجميع، فهو بحق إمام أهل الإنشاد، وأحد أبرز إعلام المدح النبوي الشريف، استطاع أن يجعل من المدح النبوي وسيلة مكارم الأخلاق، وفضائل الصفات ومحاسن الأقوال والأفعال، فجمع بين القول والتطبيق، حتى صار الإنشاد لديه رسالة سامية العظة والعبرة سبيلًا للدعوة، ذلك ما جعلها أحد منابر الدعوة الإسلامية خلال القرن العشرين، بعد أن اتخذ من منهج لدعوته، إلى أن يتحلى الجميع بأخلاق وفضائل المصطفى ﷺ وبذلك استحق أن يلقب بإمام أهل الإنشاد.

وهب الله تعالى الشيخ عبد العظيم العطواني عذوبة الصوت وجمال الأداء، فاختلطت العذوبة بالجمال فصارت قوة روحية تبعث في نفوس المستمعين مشاعر الرضا والتقوى، وانفعالات الحب وشجون الوجدان والقلوب، وهكذا تفرد بأدائه المميز وبصوته العذب، واستمالت القلوب إليه وانجذبت النفوس لهدى قصائده، التي ينشدها لأكثر من نصف قرن، وبذلك توج رحلته بتاج الشهرة ووسام التقدير من الجميع بعد رحلة عانى فيها من الكثير من الصعوبات التي واجهت طفولته وصباه وشبابه، لكنه بعزيمة التقوى وبصبر الإيمان عبر هذه الصعاب إلى أن حفر اسمه بحروف من نور بين جدران جيل العظماء، ليكتب بذلك شهادة الانتساب إليهم.

"الفشني"

صوته ذو طبيعة خاصة

مبتهل ومنشد يعدو بدون مبالغة صاحب مدرسة في تجويد القرآن الكريم، فكان أول من أدخل النغم في التجويد مع المحافظة على الأحكام واشتهر بقراءته لسورة "الكهف" .. كان المؤذن الأول لمسجد الإمام الحسين – رضي الله عنه ؟ بالقاهرة .. رئيس رابطة قراء القرآن الكريم بعد وفاة الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي .. لقب بملك التواشيح الدينية بعد أن أمتع الملايين بحلاوة صوته، فهو بحق أستاذ لكل من تلاه من مبتهلين وقراء للقرآن الكريم، فالمستمع الجيد يجد عند كل قارئ لمحة من مدرسته، وذلك كله بفضل صوته النقي الشجي الذي يشبه بالماء الزلال، الذي ينساب على قلوب المستمعين فيحيطها بردًا وسكينةً .. الشيخ طه الفشني أحد أعلام قراء القرآن والمنشدين المصريين.

وولد طه حسن مرسي الفشني سنة ١٩٠٠م بمدينة الفشن بمحافظة بني سويف جنوب العاصمة المصرية "القاهرة" في أسرة متدينة، وحرصت أسرته المحافظة على إلحاقه بكتاب القرية لحفظ القرآن الكريم، وبالفعل استطاع أن يتم حفظه في سن مبكرة، ليس هذا فحسب، بل تميز هذا الفتى الصغير بين أقرانه بالصوت الجميل في التلاوة، وهذا ما شجع أسرته على مساعدته لتعليم فنون التلاوة وعلوم القراءات وأحكام التجويد، وبالفعل أخذ القراءات على الشيخ عبد العزيز السحار، وتدرج الشيخ طه في دراسته الدينية والعامة، ثم التحق بمدرسة المعلمين بمدينة المنيا، التي

تبعد عن مدينة الفشن بقرابة ٨٠ كيلو متر، وحصل على دبلوم المعلمين وقدم إلى القاهرة قاصدًا دار العلوم.

دار العلوم

قرر الشيخ طه عقب حصوله على شهادة المعلمين الانتقال إلى القاهرة، لكي يكمل تعليمه بمدرسة دار العلوم، التي كان يقصدها في هذه الأيام كل من يسعى وراء تعلم اللغة العربية الصحيحة، لكن اندلاع ثورة ١٩١٩م حال دون التحاقه بها، وهذا بدوره دفعه للبحث عن بدائل لدار العلوم ولم يجد غير الأزهر الشريف، محراب العلوم اللغوية والشرعية في مصر، وأثناء تواجده بالأزهر أصبح مشهوراً عنه القدرة الفائقة على أداء التواشيح الدينية في مختلف المناسبات، حتى أنه كان ينشد القصيدة الواحدة لمدة أربع ساعات متصلة، كذلك اشتهر بطول النفس.

هكذا، كان عشاق الشيخ طه الفشني يسهرون حتى الفجر يستمعون إليه، وهو يؤدي الابتهالات والأذان في المسجد الحسيني، وكانوا يحرصون على الاستماع إليه، وهو ينشد التواشيح في مولد السيدة زينب رضي الله عنها، وهذا كله ما أهل شيخ المبتهلين في هذه الآونة إلى الاستعانة به للعمل ببطانة فرقته، ثم ذاع صيته بأنه قارئ ومنشد حسن الصوت.

والغريب في الأمر أنه بدأ حياته العملية مطربًا، وكان في وسعه أن يستمر في الغناء لولا النزعة والتربية الدينية، التي اكتسبها من دراسته في الأزهر، وكان لسكنه في حي الحسين أثر كبير في تردده لحلقات الإنشاد الديني إلى أن نبغ، وأصبح المؤذن الأول لمسجد الإمام الحسين، كما كان يرتل القرآن الكريم في مسجد السيدة سكينة، واشتهر بقراءته لسورة الكهف يوم الجمعة، وكذا إجادته تلاوة وتجويد قصار السور.

تعاقد مع الإذاعة

في عام ١٩٣٧مذات ليلة رمضانية كان الشيخ طه يحيى إحدى حفلات الإنشاد الديني بمسجد الحسين، واستمع إليه صدفة سعيد لطفي مدير الإذاعة المصرية في ذلك الوقت، وسرعان ما عرض عليه الالتحاق بالإذاعة، فاجتاز بنجاح جميع الاختبارات، وأصبح مقرئًا للإذاعة المصرية ومنشدًا للتواشيح الدنية بها على مدى ثلث قرن، واشتهر هذه الأثناء بقراءته لسورة "الكهف" بمسجد السيدة سكينة وبالتحديد يوم الجمعة، وكذا إجادته لتلاوة وتجويد قصار السور.

وعين الفشني عقب التعاقد معه للعمل في الإذاعة كمقرء للقرآن، ليعمل كقارئ رسميًا لمسجد السيدة سكينة وكان ذلك بالتحديد في سنة ١٩٤٠م واستمر عمله في هذا المسجد إلى أن وافته المنية، وربما يكون هذا المشوار المشرف كان سببًا في اختياره رئيسًا لرابطة القراء خلفًا لشيخه عبد الفتاح الشعشاعي سنة ١٩٦٢م.

وعندما بدأ التليفزيون إرساله كان الشيخ الفشني من أوائل المقرئين، وظهر لأول مرة يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٦٣م، وهو يتلو بعض الآيات من "سورة مريم"، ليحتل بذلك المرتبة الثالثة بين المقرئين الذي تم التعاقد معهم من قبل التليفزيون بعد الشيخين محمد رفعت، وعبد الفتاح الشعشاعي.

مقرى الملوك والرؤساء

وكان الملك فاروق يحرص على حضور حفلاته، كما تم اختياره لقراءة القرآن والإنشاد في حفلات قصر عابدين، وبعدها اختاره عبد الناصر لإحياء ليالي الصفو الروحاني بقصر رأس التين، وذلك في صحبة الصوت المعجزة الشيخ مصطفى إسماعيل، وذلك نفسه ما حرص عليه الرئيس أنور السادات، الذي كرمه مبعوثًا إلى

تركيا لإحياء شهر رمضان المبارك، وقد أهداه الرئيس عبد الناصر طبقًا فضيًا ممهورًا بتوقيعه، كما كرمه زعماء باكستان وماليزيا وتركيا، والمغرب، والسعودية، والجزائر، الذي كان فيها خير سفير لبلده.

رحل الفشني عن عالمنا في ١٠ ديسمبر ١٩٧١م، وكان صاحب مدرسة متفردة في التلاوة والإنشاد، وكان على علم كبير بالمقامات والأنغام، وانتهت إليه رئاسة فن الإنشاد في زمنه، فلم يكن يعلوه فيه أحد، وهو أشهر أعلام هذا الفن بعد الشيخ علي محمود، ومن أشهر التواشيح كانت "ميلاد طه يا أيها المختار".

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل في لفتة طيبة من الحكومة المصرية، قامت وزارة الثقافة بتكريم اسمه في عام ١٩٨٧، ووضعت اسمه ضمن أعلامها للإنشاد الديني بوزارة الثقافة، وفي عام ١٩٩١م، منح الرئيس محمد حسين مبارك نوط الامتياز من الطبقة الأولى لاسم المرحوم الشيخ طه الفشني، وتسلمه نجله المحامي زين طه الفشني.

صاحب الكرامات

يذكر أن الشيخ رفعت كان يجله جدًا، إلا أن أنه في نهاية المطاف حدث ما عكر صفو هذه العلاقة، حيث إن الشيخ محمد رفعت كان قد طلب من الشيخ طه الفشني الموافقة على زواج إحدى بناته لأحد أبنائه، وما كان من الفشني، إلا أن رفض هذه الزيجة لأسباب لم تعلن في ذات الوقت، وهذا بدوره أغضب الشيخ رفعت ولكن هذا لم يدم طويلًا، لأن الشيخ رفعت كان يحب الشيخ طه، ويحب صوته وكذلك إنشاده.

كان الشيخ طه الفشني تقيًا ورعًا محبًا للخير ولا ينسى الذين عاصروه قصة انحباس صوته التي شغلت محبيه عدة أسابيع، وتروي الكاتبة خيرية البكري تلك

القصة، فتقول: لقد شاهدت إحدى الكرامات فقد كنت ذاهبة لرحلة الحج، وكنا نستقل الباخرة واستلفت نظرنا وجود شيخ جليل بيننا تعلو وجهه علامات الآسى والحزن، وهو يجلس على الباخرة صامتًا، ويحيط به جمع من أقاربه، وهو سارح يتعبد في صمت، ولما سألنا عنه قيل لنا إنه الشيخ طه الفشني أشهر قراء القرآن الكريم، وأنه فقد صوته فجأة منذ عدة أسابيع، ولم يفلح الأطباء في علاجه، وافترقنا إلى أن جمعتنا البقعة المقدسة يوم عرفة، وكنا نستعد لصلاة العصر وفجأة شق الفضاء صوت جميل يؤذن للصلاة صوت ليس غريبًا علينا، وكان هذا الصوت هو صوت الحاج طه الفشني، وقد استرد صوته بفضل الله، وبكيت تأثرًا وفرحًا.

"النقشبندي"

صاحب الصوت الندي الخاشع

من المداحين والمبتهلين القلائل، الذين استطاعوا أن يحفروا لأنفسهم مكانة كبيرة في قلوب المستمعين في كل بقاع العالم الإسلامي، هو أستاذ بحق للمداحين في مختلف العصور، وما زال يتفرد بفن الابتهال بين كل نظرائه بفضل ما آتاه الله تعالى له من موهبة حقيقية تلك التي أهلته ليكون أحد أهم علامات شهر رمضان بالإذاعة إلى يومنا هذا.

لم يكن يتخيل وهو طفل صغير يترنم بينه وبين نفسه بمدح رسول الله ﷺ وهو يستمع إلى المداحين أن يصل في يوم من الأيام إلى مكانة هؤلاء المداحين، بل إلى أن يتفوق على بعضهم ويتربع بعذوبة صوته في قلوب مستمعيه، بفضل صوته الأخاذ القوي المتميز، الذي طالما هز به مشاعر ووجدان كل من استمع إليه، حيث اعتاد المسلمون في شهر رمضان المعظم، الاستماع إلى صوته يصافح أذان الملايين وقلوبهم خلال فترة الإفطار بأحلى الابتهالات، التي كانت تنبع من قلبه قبل حنجرته فتسمو معه مشاعر المسلمين.

الشيخ سيد النقشبندي واحد من أبرز من ابتهلوا ورتلوا وأنشدوا التواشيح الدينية في القرن العشرين، كان رحمه الله صاحب لحن ملائكي، ذا قدرة فائقة في الابتهالات والمدائح حتى صار صاحب مدرسة، ولقب بالصوت الخاشع ،والكروان الرباني، حيث الصوت الندي الخاشع سلطانه على النفوس، وربما تعداه إلى غيره من الكائنات، ولم يكن عجيبًا أن تدرك العرب تلك الحقيقة؛ فكانت تلجأ إلى أندى

الأصوات في أسفارها حتى ينشد لها من روائع البيان حتى تطرب الإبل؛ فتجدّ في سيرها، وتختصر الطريق بعدما ارتوت آذانها من عذوبة الصوت وروعة الكلمات.

مولد أروع الأصوات

وبلا شك، يعد النقشبندي من أروع الأصوات، التي قدمت الابتهالات الدينية والتواشيح، واستطاع بما حباه الله من صوت ندي قوي، وخشوع وإحساس بالكلمات التي يتغنى بها أن ينقل فن التوشيح والابتهالات من أروقة الصوفية وزواياهم إلى آذان المسلمين جميعًا، وأن يوجد جمهورًا كبيرًا لفن الابتهال والتواشيح تجاوزت حدوده الثقافة والمكان بل والدين أيضًا؛ فكان الرجل أشبه بالظاهرة الصوتية منه إلى مبتهل يقول ما عنده، ثم يمضي، ويكاد المرء عندما يستمع إلى صوت النقشبندي وهو يعلو بالابتهال وينطلق الإحساس من أعماقه أن تلامس نفسه السحاب، وأن تطير روحه بلا أجنحة سوى أجنحة الحب الصوفي، الذي استطاعت الكلمات المحملة بالمشاعر وجودة صوت النقشبندي وقوته أن ترفعه إلى تلك الآفاق البعيدة.

ولد "سيد النقشبندي" في قرية "دميره" مركز طلخا بمحافظة الدقهلية بمصر في عام ١٩٢٠م، ثم انتقل وهو في سن صغير بصحبة أسرته إلى مدينة طهطا بمحافظة سوهاج، وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره، وهناك تربى تربية صوفية خالصة، وتأثر بالطريقة النقشبندية التي أخذ منها اسم شهرته، وكان والده هو شيخ الطريقة، التي كانت تلتزم بالذكر بالقلب، وحفظ في تلك الفترة القرآن الكريم، ونال حظًا من الفقه، وقدرًا من الشعر الصوفي الخالص، منه قصيدة البردة للإمام البوصيرى وأشعار الشاعر المصري الصوفي الكبير ابن الفارض، هذا الشاعر الذي تعمق في نفسه بقوة في تلك الفترة، هو محبة الرسول ﷺ وكان حبًا يتميز بالصفاء، حتى ليخيل لمن يستمع إليه أنه عندما كان يذكر اسم محمد ﷺ كأنه يخاطبه أمامه ويوجه إليه ابتهالاته.

البداية مقرئًا للقرآن في محافظة الغربية بدلتا مصر، وكان مشهورًا بالابتهالات الدينية داخل محيطه الإقليمي، وذاع صيته في تلك المحافظة، وكان قريبًا من محافظها، الذي كان يستدعيه في بعض السهرات الصوفية للإنشاد؛ فكان النقشبندي يهيم بصوته في مدح النبي ﷺ حتى إن المارة في الطريق كانوا يتزاحمون للاستماع إلى هذا الصوت الفريد في معدنه وأدائه؛ فكان صوته يروي الآذان والقلوب العطشى إلى ذلك الحب الإلهي.

بدأت شهرة النقشبندي في عموم مصر والعالم الإسلامي متأخرة؛ حيث تعرفت عليه الإذاعات الدينية والعربية وذلك خلال إحيائه الليلة الختامية لمولد الإمام الحسين رضي الله عنه، وكانت بدعوة من صديقه الحميم الحاج سيد محمد محمد من القاهرة، فلبى الشيخ النقشبندي الدعوة، وأقام حفلًا ترنم فيه بصوته وشدا بمدح الرسول الكريم ﷺ بابتهالاته الدينية المميزة في ساحة سيد الشهداء، وأدهش مستمعيه فذاع صيته وتناقلته الإذاعات عبر موجاتها، ثم ازدادت شهرته عندما بثت الإذاعة المصرية برنامجًا تحت اسم "الباحث عن الحقيقة– سلمان الفارسي"، بالإضافة إلى الابتهالات الدينية بصوت الشيخ حتى أصبح صوته مظهرًا من المظاهر الدينية خلال شهر رمضان، والذي ارتبط في أذهاننا بصوتين بالغي الأداء الشيخ محمد رفعت (قيثارة السماء) لقراءة القرآن والشيخ السيد النقشبندي في أدعيه الإفطار وتسابيح الفجر، وكان الشاعر "حمد السيد ندا" من الشعراء الذين كتبوا عددًا من القصائد الصوفية التي تغنى بها النقشبندي.

الكريم الزاهد

ورغم شهرته التي فاقت عنان السماء، إلا أن حياته تكاد تكون مجهولة في جوانب كثيرة منها، ربما كونه كان محبًا للعيش في صفاء وهدوء بعيدًا عن ضجيج الشهرة، فقد ظل هذا الرجل بعيدًا عن أضواء عاصمة الثقافة العربية "القاهرة" حتى

تجاوز عمره الأربعين بكثير، إضافة إلى أنه توفي في الخمسينيات من عمره، لكن ما كان يحمله الرجل أكبر من السنوات لتحقيق الشهرة؛ فالرجل كان يحتاج إلى من يخلى بين صوته وقلوب الناس وآذانهم، كان هم النقشبندي ؟رحمه الله– الأكبر ترسيخ القيمة قبل تدوين سطور حياته وقصتها، يضاف إلى ذلك أن الرجل مات ولم يترك مالًا؛ فقد عرف عنه الكرم الذي تجاوز الحدود، وتزوج بشريكه عمره وكانت على شاكلته كرمًا وصفاءً وعطاءً وإخلاصًا وأنجب منها البنين والبنات، ثم توفيت فتزوج من أخرى وأنجب منها أيضًا، ومات فقيرًا لم يترك مالًا أو عقارات، وربما ذلك ما جعل الأبناء لا يستطيعون أن يهتموا بتراث والدهم وتدوين حياته.

فن المديح قديم؛ فالشعراء، مثل: حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما كانت لهم أشعار في مدح خصال النبي ﷺ والإسلام، وتطور فن المديح على مستوى الشعر، واستأثر المتصوفة بالمديح وأوغلوا فيه، أما فن الإنشاد الذي كان جوهرة المناجاة للخالق والدعاء له؛ فقد شارك فيه بعض من قراء القرآن الكريم، ثم أصبح له رواده، حتى أن فن الإنشاد الديني كان مدخلًا للبعض للدخول إلى عالم الطرب، وعلى رأسهم السيدة "أم كلثوم"، فكانت حلقات الإنشاد أشبه بالمكان الذي يصقل الموهبة؛ فهذا الفن بوجه عام يحتاج إلى ذوي النفس الطويل، والتدريب المتواصل على التحكم في النفس وطبقات الصوت في أثناء الإنشاد.

أما موقع "النقشبندي" في الإنشاد فيكاد لا يضاهيه غيره؛ إذ تحتل ابتهالاته مكانًا في وجدان المسلمين على اختلاف طبقاتهم وانتماءاتهم؛ فقليلو الحظ من الثقافة يهيمون مع صوته، ويرتفعون به ويحلقون بعيدًا في بحور محبة الخالق ومحبة نبيه ﷺ وكانت الحفلات التي يترنم فيها بصوته وإنشاده العذب مجتمعًا للمحبين على اختلاف انتماءاتهم، تاركًا وراءه تراثًا كبيرًا من الإنشاد ما زالت غالبية الإذاعات العربية تذيعه خاصة في رمضان، وله بعض الابتهالات باستخدام الموسيقى، ونظرًا لروعة إنشاد النقشبندي وقوة تأثيره في نفس مستمعيه قامت إحدى المخرجات المصريات

بإنتاج بعض من ابتهالاته في رسوم كرتونية للأطفال حتى يتعايش هؤلاء الصغار مع هذه الظاهرة الصوتية والشعورية.

عقول صلدة

كان شيخ مداحين عصره محبًا للسفر راغبًا في الدعوة إلى دين الإسلام، لذلك كان حريصًا دائمًا على تلبية كل ما يوجه له من دعوات إلى الخارج، ليشدو بمدح الرسول ﷺ ومن ثم حقق النقشبندي صيتًا كبيرًا في العالم الإسلامي فزار العديد من أقطاره، منها دول الخليج وسوريا وإيران وعدد من دول المغرب واليمن، وفي الستينيات ذهب لأداء عمرة، وشدا بصوته بابتهالاته وأناشيده، وتصادف مرور مجموعة من المعتمرين الجزائريين المتعصبين فأوسعوا النقشبندي ضربًا، ولولا دفاع مجموعة من المصريين عنه لكان في الأمور أشياء أخرى.

كان الرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات من المغرمين بصوته، حيث كان يحرص دائمًا على الذهاب إلى مسقط رأسه ميت أبو الكوم بالمنوفية، ويبعث إليه لينشد له ابتهالاته في مدح النبي ﷺ وهكذا كان النقشبندي أحد خمسة مشايخ مقربين من السادات منهم الشيخ محمد متولي الشعراوي، والشيخ عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر.

مدح النقشبندي للرسول ﷺ كان وبدون مبالغة – نبضًا سماويًا يغزو القلوب فتتفتح لمدحه كل القلوب، فكان يدعو الناس على بصيرة من ربه فتقبل الناس على مختلف مذاهبه هذا الحب الرباني الصافي، فعاش الشيخ في حياتهم وفي كل أمورهم وصار صوته علامة بارزة في عصر ولقبه كبار الأدباء والكتاب في مصر بالصوت الخاشع والكروان الرباني وقيثارة السماء وإمام المداحين، وقد وصفه د. مصطفى محمود في برنامجه التليفزيوني العلم والإيمان ذات مرة بأنه مثل النور الكريم الفريد الذي لم يصل إليه أحد.

وقد ترك الشيخ النقشبندي تراثًا إسلاميًا كبيرًا وضخمًا من الابتهالات والأناشيد والموشحات الدينية، وكان قارئًا للقرآن الكريم بطريقة مختلفة عن بقية قراء عصره ووقته، وإن كانت شهرته كمداح للرسول ﷺ ومبتهل ديني هي الصفة التي اقترنت به، وقد ترك تراثًا صوتيًا مسجلًا للإذاعة والتليفزيون فيما نسمعه ونراه، وحصل على العديد من الأوسمة والنياشين من عدد من الدول التي زارها، كما كرمه الرئيس السادات بعد وفاته عام ١٩٧٩ فحصل على وسام الدولة من الدرجة الأولى، وأطلقت محافظة الغربية التي عاش فيها أغلب عمره اسمه على أكبر شوارعها في مدينة طنطا.

وفي الرابع عشر من فبراير عام ١٩٧٦ وعن ٥٦ عامًا، قضى منها شهورًا قليلة في القاهرة استطاع خلالها تسجيل أغلب ابتهالاته وتوفي الشيخ السيد النقشبندي.

من تراث النقشبندي

١ – أسماء الله الحسنى

٢ – الآذان

٣ – سبحانك اللهم

٤ – إن عظمت ذنوبي

٥ – أغيب

٦ – يا من له الأمر

٧ – أيها الناس

٨ – النفس تشكو

٩ – بين خوف وذلة

١٠ – شكوت إلى رب الأنام

١١ – تبتلت مشتاقا

١٢ – رب وحد شملنا

١٣ – جل شأن الإله

١٤ – مولاي

١٥ – رب هب لي هدى

١٦ – يا قادر

١٧ – قبضة الله

١٨ – إلهي لا تعذبني

١٩ – يا نور كل شيء

٢٠ – يا رب ثبتني

المبتهل سعيد حافظ

قصة نجاح وكفاح

الابتهال هو فن مصري خالص ارتبط بحب الله وبالصفاء الروحي والسمو بالذات، ولقد اختلف المؤرخون حول نشأة الابتهال كتراث شعبي لتعدد الرؤى حول جذوره ليرجعها البعض للعصر الفرعوني والبعض للعهد الفاطمي، إلا أنهم يتفقون على أنه يعني الإخلاص في الدعاء ومن ثم فهو لون فني ضارب بجذوره في التراث المصري، فهذا الفن ظاهرة مصرية أصيلة راسخة في وجدان المصريين منذ العصور القديمة كاحتفالات الآلهة رع وآمون وإيزيس التي صورتها لنا جدران المعابد بالتفصيل لنشاهد فيها حاملي الأعلام والعازفين والمنشدين بمصاحبة مجموعات موسيقية.

ويؤكد علم البرديات كل ما سبق، بل ويشدد على أنه وجد في كثير من البرديات نصوصًا دينية تحمل الدعاء والابتهال إلى الإله الخاص بكل حقبة، وهكذا يعد الابتهال بمثابة تعبير عن فلسفة تراثية شعبية ممتدة من العصور القديمةكما وجد ذلك في المعبد القديم ولكن اصطبغت تلك الفلسفة بصبغة كل دين ظهر على أرض مصر وحينما جاء الإسلام تبلورت ودخلت في فلسفته، وعلى ذلك فإن فن المدح والابتهال كان موجودًا منذ عهد رسول الله ﷺ ثم تطور بعد ذلك وتعددت أشكاله مثل التي نراها اليوم.

لذلك كله يعد الابتهال أو الانشاد أغنى أنواع الأداء الموسيقي سواء في المقامات أو أسلوب الأداء فهو يعتبر مصدرًا للتعلم حيث استقى كل من الشيخ أبو العلا محمد وسلامة حجازي وزكريا أحمد وسيد درويش وأم كلثوم معطيات الموسيقى ومفرداتها من معين الابتهال الديني، إلا أن فن الابتهال يمر الآن بمرحلة من الاضمحلال، وترجع إلى أنه لم يعد هناك من المناسبات ما يستوجب أداء الابتهال وكذلك التغير الثقافي من إزاحة وإحلال فبدلا من مدرسة المشايخ أصبح الآن المعاهد الموسيقية والمساحات الضيقة في وسائل الإعلام المختلفة وإن وجد شيء فهو مبتسر ومجزأ وغير متقنًا لأماني ممكنة.

ولكن على الرغم من ذلك لا يزال المعين المصري ينضح أصوات ندية وكأنها ألحان من رب السماء وهب إياها لمصر لتكون علامة على التفرد والتميز في عالم الإنشاد الديني، وربما يكون الشيخ سعيد حافظ أحد هذه الأصوات، التي تثبت أن الأمر لا يزال في مرحلة يمكن النهوض منها، فالساحة تعاني الضعف وليس العجز الكلي، وما دام هناك قشة أمام الغريق فالأمل يظل يراوده.

ولد الشيخ سعيد حسن حافظ إدريس وشهرته سعيد حافظ بمدينة القصاصين الكائنة بمحافظة الإسماعيلية شرق القاهرة، وذلك في اليوم التاسع من شهر أكتوبر عام ١٩٥١م، لأسرة يغلب عليها التدين وحب كلام الله، والسهر على حفظه وتأويله، ومن ثم ما كاد الطفل يقدر على النطق إلا وأخذه والده من يده إلى كتاب القرية ليبدأ في حفظ القرآن الكريم، وبالفعل بدأت الرحلة مع كتاب الله على يد الشيخين محمد رشوان ومحمد الضوي، ليبدأ الشيخ الصغير مشوار التتلمذ على يد كبار مشايخ تحفيظ القرآن ليس في مدينة القصاصين فحسب بل في منطقة القناة ككل، فالمشايخ حسن أبو ستة ومحمد رشوان وعبد الرشيد عهدوا على أنفسهم أن يجعلوا من هذا الطفل الكفيف نموذجًا للتميز.

أتم الشيخ سعيد حافظ حفظ كتاب الله وعمره اثني عشرة عامًا وبدأ في البحث عمن يساعده على اتقان قواعد التلاوة والتجويد، ليس هذا فحسب بل شجع الشيخ سعيد كل من يسمعه على البحث عن سبيل مناسب لاستغلال قدراته الصوتية الفائقة، فالشيخ يمتلك حنجرة ذهبية، لذلك قرر السفر إلى القاهرة ولا يزال عمره لا يتعدى السابعة عشر، والتحق بقسم الدراسات الموسيقية بمركز المكفوفين، وتخرج فيه عام ١٩٧١م.

تأهيل مهني

وعقب انتهائه من الدراسة بقسم الدراسات الموسيقية بمركز المكفوفين، حصل الشيخ سعيد حافظ على شهادة التأهيل المهني في التعبئة والتغليف، ومن ثم تم تعيينه في شركة القاهرة للزيوت والصابون، وجاءت هذه الوظيفة بالنسبة للشيخ الكفيف بمثابة فرصة سانحة للتركيز في دراسة المقامات الموسيقية.

بدأ مشوار الشيخ سعيد حافظ بعد عمله بشركة القاهرة عن موسيقي جيد يتعلم على يديه أصول الطرب والتقسيم الموسيقى، وفي هذه الآونة لم يجده أمامه أمهر من الموسيقار أحمد المحلاوي، الذي بدأ في دراسة المقامات الموسيقية والموشحات والطقاطيق على يديه مجانًا أو بالأحري بمنحة من الموسيقار أحمد شفيق أبو عوف، وعقب انتهائه من دراسة الموسيقى التحق بإحدى الفرق الموسيقية وأول أجرًا تقاضاه كان جنيهًا واحدًا، كما غنى في برامج الهواة في الإذاعة.

ذاعت شهرة الشيخ سعيد حافظ كمبتهل ومنشد كل أرجاء القاهرة، وبدأ يتوافد عليه المعجبون، وهنا شجعه البعض على التقدم لاختبارات الإذاعة لكي يعتمد كمبتهل فيها، وبالفعل تقدم في شهر نوفمبر عام ١٩٧٩م للاختبارات؛ ليتم اعتماده مبتهلًا بالإذاعة والتليفزيون، ولتكون مشاركته الأولى بعد الاعتماد في الأمسية، التي أقيمت بمسجد الشيخ سلامة الراضي وأذيعت على الهواء مباشرة.

أول الأغاني

كانت أول أغنية دينية قدمها الشيخ سعيد حافظ بالإذاعة من كلمات الشاعر عبد المجيد عبد الفتاح وألحان الموسيقار أحمد عبد القادر، وهي بعنوان "يا رب"، ونذكر منها هذا المقطع:

يا رب اهديني
وبسترك أحميني
يا رافع السماوات
وسامع الدعوات

وفي عام ١٩٨٣م قدم الشيخ سعيد حافظ استقالته إلى الشركة التي يعمل بها وتم تعيينه بالمسرح القومي، واعتمد مطربًا بالمجلس الأعلى للثقافة وشارك بالإنشاد الديني في الليلة المحمدية الأولى.

صوت مألوف

يذكر صوت الشيخ سعيد حافظ أصبح من الأصوات المألوفة للمستمعين منذ شارك الفنان محمد الحلو في أغنية الشهيرة "يا حبيبي"، حيث جاءت مشاركته مثمرة ساهمت بشكل كبير في إنجاح الأغنية، وربما أعاد ذلك الأذهان إلى مشاركات عبد السلام النابلسي للمطرب عبد الحليم حافظ أحد أغنياته، كما شارك الشيخ سعيد أيضًا الفنان أيمان البحر درويش في أغنية "يا رسول الله يا ابن عبد الله"، هذه الأغنية التي نالت إعجاب كل من استمع إلها.

وعقب استقراره في القاهرة، تعرف الشيخ سعيد حافظ على فتاة اسكندرانية تدعى "نادية"، ليعشق كل طرف الآخر ولينتهي الأمر بالزواج الميمون الذي ترتب عليه أن رزقهم الله تعالى بطفلة تدعى "عالية".

وهكذا استطاع الشيخ سعيد حافظ خلال مشواره الممتد مع الإذاعة المصرية أن يحفر لنفسه مكانة بارزة بين المبتهلين وذلك بإصراره على إدراك النجاح الذي لا بديل عنه، وربما يتضح ذلك جليًا من الاستماع إلى أحد ابتهالاته المتعددة والتي أذكر منها: "خير الذكر – عفوك ورضاك يا رب – عفوك ورضاك – لا إله إلا الله "ابتهال مع آذان" – يا من بهديك أفلح السعدا.

عبد التواب البساتيني

ابتهال حتى النخاع

الإبتهال هو التضرع تقربًا إلى الله تعالى في عليائه، فالله تعالى هو الأحق بالتقرب إليه لطلب العون عند الحاجة، ومن ثم فالابتهال فن راق، لو توافرت مقوماتها لاستطاع المبتهل أن يجعل كلماته التي يبتهل بها تخترق قلوب السامعين، فيكون أثرها عليهم كأثر السحر فالمشاعر تتحرك، والقلب يهفو إلى رحاب الرسول الطاهرة، والعقول تبحث وتهيم في ملكوت الله، طالبة أعلى درجات الهداية خوفًا من الله وطمعًا في جنته، هكذا تصل كلمات المدح النبوي أو الذكر إلى أعماق المؤمنين فتزيدهم يقينًا، وتقربهم إلى الله تعالى، وتزيدهم حبًّا في رسوله ﷺ، وتدفعهم إلى المزيد من الطاعة.

هكذا أدرك الشيخ عبد التواب البساتيني أحد أشهر المبتهلين المصريين خلال العقود الثلاثة الماضية، فهو واحد من تلاميذ مدرسة الكبار في فن الابتهال، وعلى رأسهم الشيخ علي محمود ونصر الدين طوبار وسيد النقشبندي، وهو إلى ذلك قارئ للقرآن، هذا المبتهل الذي بدأت علاقته بالقرآن منذ الصغر، حيث دفعته أسرته في صغره إلى كتاب القرية التي ولد فيها بجنوب القاهرة وبالتحديد في محافظة بني سويف، لينتهي من حفظ القرآن وسنه لا يبلغ ١٣ سنة.

وفي المدرسة التي تجاور منزل العائلة تعارف البساتيني على معلميه، وأصبح قريب جدًا منهم وساعده على ذلك طيبته وجمال طلعته وحسن معاملته مع من يكبره، وذات مرة سمعه أحد معلميه يقرأ القرآن وينشد الكلمات الجميلة، فأعجب جدًا به وطلب منه أن يعيد ما كان أمام ناظر المدرسة، وهنا شعر بالخوف الشديد من ناظره وناظر كل المدرسة، إلا أن الناظر شجعه على ذلك، فلما فعل أخذه الناظر وذهب به إلى والده ليطلب منه أن يلحقه بمكتب لتحفيظ القرآن وتعليم أحكام التلاوة والتجويد.

بدأت رحلة البساتيني مع علم القراءات والتجويد بعد عام واحد من إتمامه لحفظ القرآن أي كان عمره آنذاك لا يتجاوز ١٤ سنة، وبإصرار ورغبة في التميز بدأ المشوار فكانت الاستفادة عظيمة؛ حيث تعلم حفظ القرآن سليمًا خاليا من اللحْن والأخطاء، وذلك على يد شيخ يتقن القرآن، مما ثبته وأكد معانيه في ذهنه، وعق الانتهاء من حفظ كتاب الله تجويدًا وترتيلًا انتقل إلى الشيخ أحمد رشوان حتى يتولى اختباره لمنحه إجازة في قراءتي حفص ونافع، وبالفعل حدث ذلك ونال الإجازة من الشيخ رشوان.

وعقب حصول الشيخ عبد التواب البساتيني على الإجازة في قراءة القرآن بروايتي حفص ونافع، قرر أن يلتحق بمعهد القراءات لكسب المزيد من المعارف القرآنية، خاصة وأنه في هذه الآونة قد قرر أن يستمر في طريق تلاوة القرآن والابتهال، وبالفعل حصل على عالية القراءات عام ١٩٧٩، ثم بدأ القراءة في المناسبات، والطريف في الأمر أن الشيخ أحمد رشوان الذي أشرف على تحفيظه القرآن، ومن أجاز له القراءة، كان يحصل على كل الأجر الذي يتقاضاه البساتيني

نظير التلاوة في المناسبات، إلا أن الشيخ الصغير كان يعبر دائمًا عن سعادته البالغة لأنه يقرأ القرآن أمام الناس ويجد تجاوبًا كبيرًا منهم.

عالم الابتهال

بعد أن قضى البساتيني فترة التجنيد الإجبارية من ١٩٦٦ حتى ١٩٧٤ بدأ دراسة جديدة من نوعها ألا وهي دراسة المقامات الموسيقية، لأنه في هذه الآونة قرر الاتجاه إلى عالم الابتهال؛ حيث كان من عشاق كبار المبتهلين المشايخ علي محمود وطه الفشني والنقشبندي، وطلب وكثيرًا ما كان يدعو الله تعالى أن يصبح في يوم من الأيام مبتهلًا مثل هؤلاء فاستجاب الله تعالى لدعوته، وأهم ما كان يلفت إعجابه في هؤلاء المبتهلين أن كل واحد منهم له مدرسة متميزة في الابتهال، حيث لا يقلد واحدٌ منهم الآخر.

يقول الشيخ عبد التواب البساتيني عن أهمية حفظ القرآن في الصغر: الحفظ في الصغر نعمة كبيرة، حيث لا ينساه الطفل بعد ذلك، لأنه يكون خالي الذهن وعديم المسئوليات، مما يهيئ له أن يحفظ القرآن بسهولة ولا يخرج من ذاكرته إطلاقًا، أما الكُتَّاب فقد ساعدني كثيرًا في أن أجيد قراءة القرآن وحفظه، كما أن الحفظ على يد متخصص وبطريقة التلقين حافظت على اللغة العربية عندي وحسَّنتها مما أفادني كثيرًا بعد ذلك، والمؤسف أن الناس لم تعد تهتم بالكُتَّاب كما ينبغي، وهو ما أدى إلى ضعف الارتباط بالقرآن وباللغة العربية معًا، خلافًا لما كان يحدث منذ فترة؛ حيث كان الاهتمام بالكُتَّاب يفوق الاهتمام بالمدرسة عند عدد كبير من الأسر، وكان الجميع بلا استثناء يحرص على تحفيظ أبنائه القرآن، مما رفع من تحصيلهم العلمي أيضًا، بدليل أن من حصل على الابتدائية في تلك الفترة كان أفضل في القراءة والكتابة والنطق السليم من بعض الحاصلين على مؤهلات عليا حاليًا.

ويؤكد البساتيني أنه تعلم من رموز الابتهال الكبار أمثال المشايخ النقشبندي وعلي محمود والفشني أنه لكي ينجح المبتهل لابد وأن يكون صاحب مدرسة وأسلوب متفرد في الأداء، ومن ثم أحرص دائمًا على أن يكون لي أسلوبي الخاص، حيث صقلت الموهبة لدي بالدراسة، كما أرفض تقليد أي مبتهل، وأرى أن المبتهل الجيد هو الذي يبتكر أسلوبًا جيدًا ينفرد به بين زملائه، مشيرًا إلى أن أكثر الأبيات التي يشعر بها أثناء إنشادها، تلك التي كتبت في مدح الرسول، وهي:

يا سعْدُ عينٍ قد رأتك وحظُّ قلبٍ فيك هام

وسلوا المُشاهِد لا الدَّعيَو من تشدق بالكلام

لأنني أثناء إنشادها دائمًا ما أتخيل وقوفي بين يدي النبي ﷺ ومن ثم تمتلأ عيني بالدموع وأجد نفسي أبكي وأتوقف عن الأداء، فالبكاء يمنعني من استكمال الابتهال.

كلمات محددة

ويوضح البساتيني أن الأبيات التي ينشدها في ابتهالاته يتولى كتابتها له بعض الشعراء، ومنهم المستشار صلاح بريك، والأستاذ محمد طه، والشيخ أحمد عبد الحكم، وهم من الموهوبين في كتابة الشعر، وأطلب منهم كلمات محددة في المناسبات مثل الهجرة والإسراء والمعراج وتحويل القبلة، فضلًا عن بعض الكلمات التي أنتقيها من التراث من بردة الإمام البوصيرى وغيرها، ثم يتولى بنفسه تلحين هذه الكلمات؛ حيث يحصل على الكلمات، ثم يحدد المقام الموسيقي الذي يصلح، لها وأُجري بعض التعديلات حتى يكون الابتهال جاهزًا للإنشاد.

ويشدد على أن القول بأن الساحة الآن تعاني من نقص حاد في المنشدين ظلم كبير لكل مبتهلي هذا العصر، لأنه لابد من الأخذ في الاعتبار التوقيت الذي ظهر فيه هؤلاء المبتهلون، حيث كان الناس لدبهم وقت فراغ وأذهان متفتحة للاستماع

للابتهالات والتأثر بها، بعكس الوقت الحالي الذي انشغل فيه الناس بأعمالهم واختفى "السمِّيعة" الذين يعشقون الابتهالات ويقدرونها، فضلًا عن تأثير التليفزيون الذي استولى على جانب كبير من اهتمامات الناس.

وعن المواقف الطريفة التي تواجهه أثناء الإنشاد في الحفلات، يقول: تعود الناس أن يطالبوني بإعادة بعض الأبيات، التي يتأثرون بها، ولكن المثير أنني كنت في حفلة بإحدى مدن الصعيد، فأصابني "سعال" خلال الإنشاد فطالبني الحاضرون بإعادة "الكُحة" مرة أخرى، كما كان الشيخ إسماعيل صادق العدوي– رحمه الله – يستمع إلي في إحدى المرات، فتأثر جدًا بالابتهال لدرجة أنه قام "بسبِّي" بصوت مرتفع من فرط الاندماج مع الكلمات.

ويذكر الشيخ عبد التواب البساتيني أن الابتهال فن رائع، أرجو أن يتم الاهتمام به خاصة من جانب وسائل الإعلام التي لا تعرضه إطلاقًا سوى في إطار الحفلات الرسمية، ويستثنى بالطبع إذاعة القرآن الكريم، التي تمثل الراعي الأول للمبتهلين في مصر، ولها الفضل على المؤديِّن للابتهالات والجمهور في نفس الوقت، مطالبًا القائمين على وسائل الإعلام في مختلف البلدان الإسلامية بضرورة الاهتمام بالتواشيح، وهي تختلف عن الابتهالات في أنها تُؤدي بصورة جماعية، وهي فن راق للغاية تلاشى حاليًا بسبب عدم الاهتمام، وأدعو إلى إحيائه مرة أخرى.

وينصح المبتهل الشيخ عبد التواب البساتيني شباب المبتهلين دائمًا بضرورة توافر الصوت الجيد، ثم صقل تلك الموهبة بالدراسة، وإجادة اللغة العربية، والأهم من كل ذلك الإخلاص؛ لأن ما خرج من القلب وصل إلى القلب، فليس كل من يبتهل يؤثر في الناس ويصل إلى قلوبهم.

"كامل البهتيمي"

شيخ ساعدته موهبته الفذة على الانتشار

قليلة هي الأصوات العذبة التي حباها الله بالموهبة والطلاوة والحلاوة والعبقرية الحقيقية، هذه هي الأصوات التي مكنها الله بالقدرة على تلاوة الآيات وأداء التواشيح والأناشيد الإسلامية من أعمق أعماق القلب، وهذا ما يجعلها قادرة على الوصول بسرعة البرق إلى القلوب بدون أن تحتاج إلى أذن مسبق .. ومن هذه الأصوات صوت المبتهل والمنشد العبقري الشيخ كامل يوسف البهتيمي.

هو محمد ذكي يوسف الشهير بكامل البهتيمي من مواليد حي بهتيم بشبرا الخيمة بمحافظة القليوبية عام ١٩٢٢م، ألحقه أبوه الذي كان من قراء القرآن بكتاب القرية وعمره ستة سنوات وأتم حفظ القرآن قبل بلوغ العاشرة من عمره فكان يذهب إلى مسجد القرية بعزبة إبراهيم بك، ليقرأ القرآن قبل صلاة العصر دون أن يأذن له أحد بذلك، وكانت ثقته بنفسه كبيرة، فكان يطلب من مؤذن المسجد أن يسمح له برفع الأذان بدلًا منه، ولما رفض مؤذن المسجد ظل الطفل الصغير يقرأ القرآن بالمسجد وبصوت مرتفع ليجذب انتباه المصلين.

صوت مبهر

وبالفعل، كان للبهتيمي ما أراد، إذ أن حلاوة صوته أخذت تجذب الانتباه، فبدأ المصلون يلتفون حوله بعد صلاة العصر يستمعون إلى القرآن بصوته مبهورين به، وبدأوا يسألون عنه وعن أهله فعرفوه وألفوه وزاد معجبوه في هذه السن الصغيرة،

فسمح له مؤذن المسجد أن يرفع الآذان مكانه تشجيعًا له وأذن له بتلاوة القرآن بصفة دائمة قبل صلاة العصر، فصار صيت الصبي كامل البهتيمي يملأ ربوع القرى المجاورة، وأخذ الناس يدعونه لإحياء حفلاتهم وسهراتهم.

كان أبوه يرافقه وظل على هذا الحال مدة طويلة، حتى استقل عن أبيه وأصبح قارئًا معروفًا بالبلدة، وكذلك قارئ للسورة يوم الجمعة بمسجد القرية، وكان أهل القرية يعتبرون ذلك اليوم عيدًا، لأنهم سيستمتعون بصوت ذلك الصبي، وظل كذلك حتى أوائل الخمسينيات، حيث كان الشيخ لا يتقاضى خلال هذه الفترة مليمًا واحدًا عن كل الحفلات، التي ينشد فيها أو يتلو القرآن طيلة فترة وجوده بقريته.

كان البهتيمي يقول: " أذهب للمسجد لكي أدرب صوتي على تلاوة القرآن، مقلدًا الشيخان محمد سلامة ومحمد رفعت؛ لأثبت لمن يستمع إلي أنني موهوب"، وبالفعل نال التشجيع الكبير والاستحسان، وكان ذلك مبعث الثقة في نفسه، وكلما رأته أمه كانت تدعو له بالتوفيق والسعة في الرزق، فيقول لها: "سيأتي اليوم الذي يصبح فيه ابنك من مشاهير القراء في مصر"، فكانت أمه تفرح بهذا الكلام كثيرًا.

فاتحة خير

ومع بداية عام ١٩٥٢م، استمع إليه الشيخ محمد الصيفي ذات مرة، فكان ذلك فاتحة خير عليه قادته لطريق الشهرة، حيث كان الشيخ الصيفي قد علم بوجود قارئ جديد ببهتيم يتمتع بحلاوة الصوت، فذهب إلى بهتيم واستمع إلى تلاوة الشيخ كامل دون علمه، فأعجب به وطلب منه أن ينزل ضيفًا عليه في القاهرة، فاصطحبه ونزل ضيفًا عليه في بيته بحي العباسية فمهد له الطريق؛ ليلتقى بجمهور القاهرة وجعل بطانته له في الحفلات والسهرات، وقدمه للناس على أنه اكتشافه.

وقبلها كان الشيخ البهتيمي، قد بدأ زيارات إلى القاهرة ليتعلم في مدرسة عثمان باشا ماهر بالقلعة، وبعد أن حفظ القرآن في قريته بالقليوبية وبعد أن أنهى هذه المرحلة من حياته المبكرة أدرك ضرورة إكمال مشواره في رحاب الأزهر الشريف، فانخرط وسط صفوف طالبي العلم القادمين من كل مكان ومختلف المحافظات، فقضى فترة قصيرة هناك أخفق فيها في الانتظام يوميًا داخل قاعات الدرس، فقد كان كثير الغياب.

كان تغيب البهتيمي عن دروس الأزهر، ليقف وراءها طوافه المستمر أثناء الليل حول السرادقات المنتشرة في بعض الأحياء والمناطق، التي يقرأ فيها عادة القارئ الشهير الشيخ محمد رفعت الذي ارتبط بصوته منذ طفولته ووعيه المبكر في الحياة، كما كان يبحث كل ليلة عن رائد فن التواشيح الدينية الشيخ علي محمود، ليجلس داخل السرادق لا يتحدث، ولكنه يتابع ويرصد ذلك الأداء العبقري للشيخ الكفيف وغيره من عمالقة هذا العصر، واعتاد لذلك في تلك الفترة ألا يعود إلى منزله إلا مع الخيوط الأولى للفجر.

أول العمالقة

كان الشيخ محمد رفعت هو أول العمالقة، الذين تعرف إليهم الشيخ كامل في مطلع شبابه ووجد عند الشيخ رفعت كل رعاية وعطف حتى مات، والبهتيمي حينما أخذ طريقه نحو عالم التلاوة بدأ في الاستماع لكثير من الأصوات المحببة إلى نفسه، فهو يعتبر "رفعت" أحب الأصوات إليه على الإطلاق، كما يضع صوت الشيخ مصطفى إسماعيل في مرتبة عالية فهو صاحب أجمل صوت بين كل القارئين.

وبعد أن قرر البهتيمي الاستقرار مع شيخه الصيفي في منزله، بدأ جمهور القاهرة يتعرف عليه كمبتهل ومنشد رائع، فأصبح يدعى بمفرده لإحياء الحفلات والسهرات، وكان ذلك يسعد الشيخ محمد الصيفي، فأخذ يشجعه من زاد من ثقته

حتى ذاع صيته في أحياء وضواحي القاهرة، وأصبح قارئ له مدرسة وأسلوبه في الأداء، وأفاض الله عليه من الخير الكثير والمال الوفير، فاشترى قطعة أرض بشارع نجيب بحي العباسية أقام عليه عمارة كبيرة.

وفي هذه الأثناء، قرر الشيخ يوسف البهتيمي أن يستقل عن شيخه ومعلمه الصيفي، فاستأذنه أن يستقل بحياته شاكرًا له حسن ضيافته وكريم صنيعه وما قدمه له من عون طوال فترة إقامته بالقاهرة حتى استطاع أن يثبت جدارته وأهليته لقراءة القرآن وسط كوكبة من مشاهير وعظام القراء بالقاهرة.

يذكر أن الشيخ البهتيمي لم يلتحق بأي معهد من معاهد القرآن وتعليم القراءات، بل لم يدخل أي مدرسة لتعليم العلوم العادية، ولكنه استطاع من خلال الممارسة والخبرة والاستماع الجيد إلى القراء، مثل: المشايخ محمد رفعت ومحمد سلامة والصيفي وعلي حزين أن يتعلم أحكام التلاوة والإنشاد دون أن يشعر هو بذلك، وقد اكتملت عناصر النجاح لديه بعد الاستماع إلى هؤلاء العمالقة في قراءة القرآن.

اعتماد متأخر

وربما يكون عدم التحاق البهتيمي بأي معهد لتعليم أحكام التلاوة والقراءات هو أهم الأسباب، التي أخرت تقدمه للاعتماد بالإذاعة، ففي عام ١٩٥٣م عرض عليه أستاذه الشيخ محمد الصيفي أن يتقدم بطلب للإذاعة لعقد امتحان له أمام لجنة اختبار القراء، إلا انه رفض خشية أن يتم إحراجه لعدم إلمامه بعلوم وأحكام القرآن وعلوم التجويد، وأنه لم يدرس بأي معهد للقراءات، ولكن المشايخ محمد الصيفي وعلي حزين لإقناعه بضرورة التقدم لهذا الامتحان، وأن موهبته تفوق كثيرين تعلموا بمعاهد القراءات.

وبالفعل، استجاب الشيخ يوسف لإلحاح الشيخ الصيفي، وقرر أن يقهر خوفه من الرسوب في امتحان لجنة الاعتماد بالإذاعة، وفك عقدته وتقدم للامتحان ونجح بامتياز، فتعاقدت معه الإذاعة المصرية في أول نوفمبر عام ١٩٥٣م، وتم تحديد مبلغ أربعة جنيهات شهريًا مقابل التسجيلات التي يقوم بتسجيلها للإذاعة، وتم تعيينه بعد ذلك قارئ للسورة يوم الجمعة بمسجد عمر مكرم بميدان التحرير بالقاهرة، والذي ظل به حتى وفاته.

وتذكر مصادر أخرى، أن دخول الشيخ كامل يوسف البهتيمي إلى الإذاعة بعد أن قدمه أستاذ جامعي يدعى أمين زاهر إلى الإذاعي الراحل محمد فتحي عام ١٩٥٣م، وبعدها قرأ عبر الأثير في إذاعة القاهرة، نظير أجر قدره خمسون قرشًا فقط، وعندما نشبت حرب العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦م، ارتفع أجره إلى خمسة عشر جنيهًا، وبعد ذلك سافر إلى فلسطين، وقرأ من محطة الشرق الأدنى خلال شهر رمضان المعظم، وهذا قبل أن يسافر إلى السودان ويقرأ القرآن في النادي المصري هناك طوال شهر رمضان أيضًا وبأجر قدره خمسمائة جنيه.

هكذا ذاع صيت الشيخ البهتيمي في هذه الآونة في محطات لندن، وسوريا، ونيودلهي، والشرق الادنى، بأجر جنيه عن الدقيقة الواحدة، وبدأ رحلات السفر إلى خارج مصر سفيرًا للقرآن الكريم، حيث انطلق من عاصمة العلم والعلماء إلى آفاق عالمية لم يستطع أن يصلها إلا قلة من القراء الذين دانت لهم أركان دولة التلاوة القرآنية.

علاقته برجال الثورة

كان الشيخ كامل البهتيمي محبوبًا من كل أعضاء مجلس قيادة الثورة، وكان الرئيس عبد الناصر يحبه حبًا شديدًا، ويطلبه لرئاسة الجمهورية لإحياء معظم

الحفلات، التي تقام بمقر الرئاسة، وكان الناس يظنون أن اقتراب الشيخ البهتيمي من الرئيس عبد الناصر بغرض التقرب للسلطة أو سعيًا وراء الشهرة، خاصة وأن عهد عبد الناصر كان مليئًا بالمتناقضات، ومن ثم كان سخط الناس على الشيخ البهتيمي هو ترجمة لسخطهم الحقيقي على الرئيس عبد الناصر، ولذلك بعد وفاته معاملة الحكومة مع آل بيت البهتيمي، واتضح ذلك من خلال امتناع الإذاعة المصرية عن إذاعة تسجيلات الشيخ البهتيمي، وكذلك التليفزيون الأمر الذي وصل بالدولة أنها لم تكرم الشيخ حتى الآن.

وعن حكايته مع المرض الذي ألم به قبل رحيله، ويذكر ولده د. عصام البهتيمي أنه في عام ١٩٦٧م ذهب الشيخ كامل يوسف البهتيمي إلى مدينة بورسعيد تلبية لدعوة وجهت إليه لإحياء ليلة مأتم، فحدث أن تلعثم لسانه أثناء القراءة وعجز عن القدرة على مواصلة القراءة، بل وعجز عن النطق، وقد شعر بأن شيئًا يقف في حلقه، فثقل لسانه فقمنا بنقله إلى الفندق الذي كنا ننزل به، وتم إسعافه سريعًا ونقله إلى القاهرة، وبعد تلك الحادثة بأسبوع واحد أصيب بشلل نصفي فتم علاجه واسترد عافيته.

محاولة اغتيال

وأكد د. عصام أنه قد قيل لهم فيما بعد أن ما حدث للشيخ البهتيمي ببورسعيد، كان بمثابة محاولة فاشلة لقتله، حيث وضع بعض الحاقدين له مواد سامة في فنجان قهوة كان قد تناوله قبل بدء التلاوة بالمآتم، ورغم أن الشيخ أسترد عافيته إلا أن صوته لم يعد بنفس القوة التي كان عليها عن ذي قبل.

وأضاف: مرت الشهور حتى فؤجئنا بأخي يدخل علينا البيت ذات يوم بعد رجوعه من إحدى السهرات، وهو في حالة إعياء شديد وقمنا باستدعاء طبيبه الخاص الدكتور مصطفى الجنزوري، الذي صرح لنا بأنه مصاب بنزيف في المخ، وبعدها بساعات

قليلة فارق الشيخ كامل البهتيمي الحياة وأذكر أن الدكتور فرحات عمر الفنان المعروف بالدكتور قال لي مؤخرًا وبالحرف الواحد أبوك يا بني مات مقتول.

هكذا رحل الشيخ المنشد المبتهل القارئ كامل يوسف البهتيمي قبل أن يحقق أحلامه التي كثيرًا ما راودت خياله، وهي الرجوع إلى القرية والاستقرار بها والوفاء ورد الجميل لأهلها، إلا أن المنية وافته عام ١٩٦٩م عن عمر يناهز ٤٧ عامًا، فحال ذلك دون تحقيق حلمه.

الشيخ محمد الطوخي

صوت السماء

للإنشاد الديني قصة تؤكدها كتب التراث، وهي أنه مع ظهور الإسلام في مكة المكرمة، ثم هجرة الرسول الكريم ﷺ إلى المدينة المنورة، كانت الدولة الإسلامية قد بدأت ملامحها تظهر للنور، واستقرت أحوال المسلمين، وجعل الناس يقيمون فرائضهم، ويتحينون أوقات الصلاة بقراءة القرآن فيجتمعون لتأديتها، وكان لابد للمسلمين أن يفكروا في صيغة لدعوة المصلين لأداء الصلوات في أوقاتها، فاقترح بعضهم أن يوقدوا نارًا فاعتُرِض على هذا الاقتراح؛ لما له من شبه بنار الفرس، التي كانوا يعبدونها ويتبركون بها، ثم أدلى بعضهم بفكرة أخرى وهي أن ينادي للصلاة ببوق ينفخ فيه؛ فيسمعه المسلمون، فرُفِض هذا الرأي أيضًا.

وفي اليوم التالي، اجتمعوا بالرسول الكريم ﷺ وقص عليه عبد الله بن زيد ـ رضي الله عنه ـ رؤياه، وهي أنه سمع في منامه أذانًا يدعو للصلاة؛ فصدَّقه الرسول ﷺ وأمره بالآذان ففعل، فلما سمع عمر ـ رضي الله عنه ـ الصوت أقبل على الرسول ﷺ وقال: أو لا تبعثون رجلًا آخر يصلح له، فلما فرغ عبد الله بن زيد من الأذان، قال له الرسول ﷺ : "قم مع بلال فألقها عليه، فليؤذن بها، فإنه أندى منك صوتًا"، فنادى بها بلال وظل يجود فيها كل يوم خمس مرات، ويرتلها ترتيلًا حسنًا بصوت جميل جذَّاب.

ومن هنا، جاءت فكرة الأصوات الندية في التغني بالأشعار الإسلامية، ثم تطور الأمر على أيدي المؤذنين في مصر والشام والعراق وغيرها من البلدان، وأصبح له قوالب متعددة وطرائق شتى.

والشيخ محمد الطوخي أحد رموز الإنشاد الديني في العالم الإسلامي، صوته مميز ونبرات صوته ارتبطت بأسماع المسلمين بصلاة الفجر وخاصة في شهر رمضان، حيث تسمو المشاعر الإنسانية، فقدراته الفنية يشهد بها الجميع، كثيرًا ما وجهت له الدعوات من مختلف البلدان الإسلامية لكي يزورها ويطرب آلها بصوته الشجي وكلماته المعبرة فينال التكريم والحفاوة من كل بلد ينزل بها كقارئ للقرآن أو منشد ومبتهل لحلو الحديث، فالإنشاد الدني فن كان يسري في عروقه مجرى الدم، وكثيرًا ما أعلن ذلك.

إجازة القرآن

ولد محمد الطوخي في محافظة المنوفية عام ١٩٢٢، وحرص والده على إلحاقه في الصغر بكتاب القرية، لكي يحفظ القرآ ن الكريم، وبالفعل أتم الطفل الصغير الموهوب حفظ كتاب الله، وانتقل للدراسة في الأزهر الشريف، وحصل على إجازة القرآن الكريم عن اقتدار وجدارة، إلا أنه كان يعشق الموسيقى ويحرص على سماع كبار المبتهلين كالشيخ علي محمود، وهذا بدوره دفعه للبحث عن الآليات التي تؤهله ليكون مبتهلًا ومنشدًا كبيرًا بالإضافة إلى قراءة القرآن.

تعلم الشيخ محمد الطوخي العزف على العود على يد الشيخ مرسي الحريرى، وأتقن الشيخ محمد الطوخي قواعد اللغة العربية وإلقاء القصائد الشعرية وجمع بين الابتهالات والإنشاد وقراءة القرآن الكريم والمآذونية الشرعية بعد اعتماده بالإذاعة سجل لها العديد من التسجيلات.

ويذكر أنه استطاع أن يسجل السيرة المحمدية بأشعار أحمد المراغي وأداء كريمة مختار وسعد الغزاوي ويوسف شتا وإخراج كمال النجار لإذاعة الشعب، بالإضافة إلى مجموعة من الأدعية لبرنامج دعاء الأنبياء إخراج فوزي خليل، وفي عام ١٩٤٦ بعد أن سجل للإذاعة بعض التواشيح أطلقت عليه الإذاعة لقب "المنشد".

شروط المنشد

كان الشيخ محمد الطوخي يرى أن شروط المنشد هي حلاوة الصوت ونقاءه والنطق الصحيح للحروف وتجويد القرآن الكريم والإلمام بالقواعد الموسيقية، ومن ثم كان ينصح القراء والمنشد الجدد دائمًا بضرورة السعي لإتقان اللغة بدراسة اللغة العربية، كما كان يدفعهم بقوة لدراسة القواعد الموسيقية، فقد كان رحمه الله تعالى ماهر في استخدام العود.

زار الشيخ الجليل المملكة الأردنية الهاشمية وسوريا والعراق وماليزيا وباكستان وإيران وقطر ونيجيريا وأوغندا والعديد من الدول وسجل لها مجموعة من التسجيلات، واستطاع بحق أن يكون سفيرًا جديرًا بالاحترام في كل بلد يذهب إليه سواء كان إسلاميًا أو غير إسلاميًا، ولذلك تجد شهرته لا تزال ذائعة الصيت بين أبناء هذه البلدان التي تعشق سماع الابتهال والإنشاد من المصريين لحسن صوتهم.

كان الشيخ الطوخي معروف بين أهالى منطقة بولاق الدكرور نظرًا لأنه المأذون الشرعي لهذه المنطقة "حلال المشاكل والمعلن عن الأفراح" فالزواج على يده وكذلك الطلاق، ليس هذا فحسب بل قرأ أيضًا القرآن الكريم في مسجد أبو العلا، كما حرص على ممارسة الإنشاد الديني في الليالى والسهرات الخاصة، التي يعشقها كل المسلمين.

حصل الشيخ محمد الطوخي على العديد من الأوسمة وشهادات التقدير، ومن ابتهالاته الدنية نذكر هذا المقطع:

يارب

تقبل صلاتنا وقيامنا

وركوعنا وسجودنا

واختم بالصالحات أعمالنا

واغفر لنا ولوالدينا

يا رب

حكم المسابقات

اختير الشيخ محمد الطوخي عقب اعتماده منشدًا بالإذاعة ليكون حكمًا للمسابقات القرآنية، وكان له في ذلك صولات وجولات، فيذكر أنه تم دعوته لحضور مؤتمر عن الإنشاد والأذان في طهران عاصمة إيران في نهاية العقد الثامن من القرن الماضي، فتحدث بطلاقة، مؤكدًا أن الإمام على رضي الله عنه أعلى من رتبة الولى، وأنه في أول سفر لي إلى إيران، عرض على الأذان بجملة (أشهد أن عليًا ولي الله) فلم أقبل في البداية وبعدها سألوني إن كنت مخالفًا لهذه الجملة، فأجبت أن الإمام علي أعلى مرتبة من هذه الكلمة لأن الرسول ﷺ قال فيه: (علي مني كمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) وبعدها ألقيت الأذان بهذه الجملة.

وشدد في هذا المؤتمر على أنه من الضروري أن تسعى الحكومات لتوطيد العلاقة بين الشباب والقرآن الكريم، نظرًا لأن الشباب اليوم على استعداد كبير في مجال القرآن الكريم، ولابد من دفعهم لذلك وتشجيعهم لسلك هذا الطريق.

وكان الشيخ الطوخي ـ رحمه الله – يفرق بين القرآن والتواشيح والابتهالات، ويرى أنه إذا جاز أداء التواشيح والابتهالات بمصاحبة الموسيقى، فإنه لا يجوز أبدًا

أداء القرآن بمصاحبة الموسيقى، مشيرًا إلى أن المسلمين منذ نزول القرآن تعارفوا على طريقتين لأداء القرآن طريقة الترتيل وطريقة التجويد، وبالقراءات السبع أو العشر، مؤكدًا أن الدعوة إلى تلحين القرآن لم تظهر إلا خلال العشرين عامًا الأخيرة وعلى أيدي أناس من غير المشتغلين بالقرآن، وهذا يثير الشكوك حول نواياهم وأهدافهم، مشيرًا إلى أن القرآن يعتمد في تأثيره على السامع على بلاغته ونظمه المعجز وتراكيبه الفريدة، ثم على الصوت الجميل للقارئ.

تلحين القرآن

كذلك كان يجزم بما لا يترك شكًا أنه لا بأس من إدخال الموسيقى على التواشيح والابتهالات، وأن الذي يؤدي التواشيح أستاذ فنان تعلم الموسيقى وأدرك قواعدها ودروبها، أما الذي يؤدي الابتهالات فهو يغني كيفما يشاء، مشيرًا إلى أن التواشيح عبارة عن قصائد يقوم ملحن بتلحينها ثم يحفظ المؤدي وبطانته التواشيح مع العزف على العود وبعد الحفظ يؤدونها بدون موسيقى فهي أغنية موسيقية بدون موسيقى تؤديها أصوات قوية وجميلة تستطيع جذب الناس والتأثير فيهم.

وكان يرى أنه أول من أدى التواشيح على الموسيقى، كان الشيخ علي محمود والشيخ محرز سليمان بالإضافة إلى الشيخ زكريا أحمد، موضحًا أنه بجانب التواشيح والابتهالات، فهناك الأغنية الدينية التي تؤدي بمصاحبة الموسيقى، وقد غنيت أكثر من ١٥ أغنية نالت شهرة كبيرة وأعجب بها الناس، مثل: "ماشي في نور الله"، "وتسابيح"، و"صلي على المصطفى"، مؤكدًا أن التواشيح والابتهالات هي من نظم البشر، ولذلك فإن ادخال الموسيقى عليها لا يقلل من شأنها ولا يعد إهانة لها، وانما هو من قبيل التجويد والتحسين لتؤدي دورها في التأثير على الناس، أما القرآن فهو كلام مقدس وله قدرة خارقة على التأثير دون الاستعانة بموسيقى أو غيرها، وفي ذلك يقول تعالى: "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله"،

ومن ثم فقياس القرآن على الابتهالات والتواشيح قياس فاسد، لأن المقارنة بين كلام الله، وكلام البشر غير واردة ولا تجوز بحال من الأحوال.

محمد الكحلاوي

مداح النبي

بلا منافس يظل الكحلاوي رمزًا للفنان الصوفي، الذي عرف هدفه فأصر على الوصول إليه، وإن كان قد تخبط في البداية ومعاناته لم تقصيه عن هدفه، حيث فقده لأبيه وأمه في سن صغيرة، وانتقاله إلى بيئة مختلفة عن تلك التي ولد وعاش بعض طفولته فيها، ثم هروب إلى بلاد لا يعرف أحد فيها، وهو لا يزال صبيًا صغيرًا، ليعود كالشعلة المتقدة فيمثل ويلحن ويغني وتصبح ألحانه حديث لكل الملتقيات الفنية، وفي ليلة يشعر بحب صوفي للرسول ﷺ فيتجه إلى الغناء الديني، وهنا تبدأ رحلته مع حياة الصوفية، فيهب حياته كلها لحمد الله تعالى ومدح نبيه الكريم ليكون بحق "مداح النبي".

نشأ محمد مرسي عبد اللطيف المولود في أكتوبر ١٩١٢م بمركز "منيا القمح" التابع لمحافظة "الشرقية" في بيئة إسلامية خالصة، وعاشر الحزن والمرارة في بداية حياته، حيث شب ليجد نفسه يتيمًا، وأمه توفيت أثناء الولادة والأب أبى أن يعيش بعيدًا عنها فلحق بها، ليستقر به المطاف إلى كنف خاله الفنان محمد مجاهد الكحلاوي، وكان عمره آنذاك ثلاث سنوات، الذي انتقل به إلى حي باب الشعرية الشعبي العريق، الذي كان له أثرًا كبير في شخصيته، وفي اسمه أيضًا حيث اكتسب منه لقبه الكحلاوي.

نبتة صالحة

كان خاله شديد الحرص على تربيته وتعليمه، ليجعل منه نبتة صالحة ناجحة في الحياة، ولذلك أصر على أن يلحقه بالمدرسة، ليتعلم ويبدأ طريقا يلتمس فيه نجاحًا، وكانت البداية بمدرسة فرنسية للراهبات تعلم ودرس بها قرابة خمس سنوات، وفي الوقت ذاته كان يحفظ القرآن في جامع سيدي الشعراني، ولما لم تعجبه الدراسة بالمدرسة الفرنسية، ألحقه خاله بالتعليم الديني الأزهري، فأظهر تألقًا ساعده عليه حفظه للقرآن كاملًا حفظًا وتلاوةً في السادسة من عمره، واستمر في التعليم الأزهري، لكنه لم يحصل على شهادة العالمية الأزهرية، وكان لدراسته الدينية أبلغ الأثر في إتقانه للغة العربية وتصحيح مخارج ألفاظه، واستيعابه للنصوص العربية والشعر العربي، ومكنه بعد ذلك من إلقاء الشعر والقصائد والمدائح النبوية.

كما عرف عن الكحلاوي منذ صغره تعدد مواهبه وعظم قدراته فبجانب تفوقه في الجانب التعليمي وقدرته العالية على الحفظ والمذاكرة، كان الفتى يحرص على قضاء وقته بين الغناء ولعب كرة القدم، التي أحبها وتميز فيها، مما دفع المحيطين له على مد يد العون له ومساعدته للاشتراك في نادي السكة الحديد واللعب في فريق النادي الأول، ليصبح فيما بعد كابتن فريق نادي السكة الحديد، ولأنه كان طموح لم يكن يكتفي باللعب في نادي السكة الحديد بل كان يداوم على ملازمة كل من نادي الزمالك ونادي الترسانة ، اللذين هما أكبر وأعرق نوادي مصر في هذه الأثناء في كل سفرياتهم وجولاتهم الرياضية.

حرص الكحلاوي منذ صغره على الغناء، بل عرف في بداية عهده مطرب حي باب الشعرية، حيث كان يحيي كل حفلات السمر، التي تعقد وتقام في هذا الحي بلا منافس، ولم يكتف بإحيائه لحفلات الحي، الذي يعيش فيه بل كان يحرص على الذهاب سيرًا على الأقدام وأصدقاء حيه كل خميس إلى حديقة الأزبكية الشهيرة، التي كانت في هذه الأيام بمثابة ملتقى للفرق المسرحية والموسيقية العريقة، مثل فرقة

الشيخ سلامة حجازي وفرقة الست منيرة المهدية وعكاشة، وكانوا يختلسون النظر من خلف الكواليس وأحيانًا كانوا يشاركون في بعض الأعمال كومبارس صامت"، إلى أن لعبت الصدفة لعبتها عندما تأخر مطرب الفرقة زكي عكاشة في ذلك الوقت، فطلب منظم الحفلة من الكحلاوي وأصدقائه بأن يقوم أحدهم بالغناء حتى لا يمل الجمهور، فأجمعوا كلهم على الكحلاوي.

صدفة!

هكذا كانت المرة الأولى صدفة، حيث غنى إحدى أغنيات خاله ليتلقى الجمهور الأغنية بتجاوب شديد لدرجة أن الكحلاوي أحس بالفزع الشديد، وفر هاربًا بعيدًا عن الجمهور، الذي شجعه بشدة مخيفة، فاختاره صاحب الفرقة للعمل كمطرب ضمن صفوف العاملين بالفرقة، وبمجرد أن انتظم في الغناء بالفرقة، جاءت للفرقة فرصة للسفر إلى بلاد الشام وعرض عليه صاحب الفرقة إلى أن يسافر معهم إلى بلاد الشام، وفي هذه الأثناء، وكان لا يزال طفلًا لا يتعدى عمره الثانية عشرة، ورغم ذلك وافق على السفر مع الفرقة دون استأذان خاله، واستمر لثماني سنوات في بلاد الشام، وتنقل فيها بين بلادها ليتعلم الغناء العربي الأصيل، ويتقن خلالها اللهجة البدوية وإيقاعاتها وغناء الموال.

عاد الكحلاوي إلى مصر عام ١٩٣٢، وبمجرد عودته عكف على تصوير إسكيتشًا بدويًا وهو "أفراح البادية"، مستفيدًا باللهجة التي أتقنها، وكان يعرض هذا الإسكيتش في استراحات السينمات محدودة العدد في هذا الوقت؛ هكذا استطاع أن يمتلك ميزة لا يملكها غيره من مطربي جيله، وهي ميزة القدرة على الغناء البدوي، لذلك وجد أن هذا الاتجاه ربما يجعله مميزًا فريدًا، فتوجه الفنان الشاب إلى الغناء البدوي، فكون ثلاثية جميلة مع بيرم التونسي بالكتابة وزكريا أحمد بالتلحين، ثم خاض

تجربة التمثيل في أفلام عديدة منها، "أولاد لأمة" و"أحكام العرب" و"يوم في العالى" و"أسير العيون" و"بنت البادية".

غناء ديني

وبعد عشر سنوات من عمله للسينما المصرية، بدأت مرحلة جديدة في حياة الكحلاوي باتجاهه إلى الغناء الديني في وقت لم تكن تعرف الأغنية الدينية بمفهومها الحالى، وكانت تقتصر على التواشيح الدينية، ولكنه استطاع أن يضع لهذا الشكل الغنائي أسس وقواعد محددة، لتصبح الأغنية الدينية فيما بعد تغنى بنوتة موسيقية وفرقة كاملة، تلون في غنائه بين الإنشاد والغناء والسير والملاحم والأوبريتات، وتمثل هذه المرحلة قرابة نصف إنتاجه الفني، فقد لحن أكثر من ٦٠٠ لحن ديني من مجمل إنتاجه الذي قارب ١٢٠٠ لحن، ومن أعظم هذه الألحان "سيرة سيدنا محمد" ﷺ و"سيرة السيد المسيح"، و"قصة حياة سيدنا إبراهيم الخليل"، ولذلك كله لمع الكحلاوي في هذا الشكل الغنائي، ولاقت أغانيه حفاوة عند جمهوره، وأصبحت تذاع في كل المناسبات الدينية وخاصة أغنيته المعروفة في كل بقاع البلدان الإسلامية "لأجل النبي".

لقد كان حلم الكحلاوي في هذا المجال أكبر من الاعتناء بالأغنية الدينية، بل كان يحلم كثيرًا بإنشاء مسرح إسلامي، وتكوين فرقة للإنشاد الديني على مسرح البالون المصري، لكنه للأسف لم يستطع تحقيق هذا الحلم الذي يعمل الآن ابنه الفنان أحمد الكحلاوي على تحقيقه، فقد عاش الغناء الدنني أكثر من غنائه له، فقد كان معروفًا عنه أنه لم يكن مجرد مغن أو منشد ديني، بل كان يعيش الغناء ويحسه كالمتصوف الهائم في حب الله تعالى ورسوله الكريم وأوليائه البررة، ذلك ما جعله يدخل بمرحلة الغناء الديني مرحلة الورع والزهد في حياته، بعد أن ندم على الوقت الذي قضاه بعيدًا عن الله وبعيدًا عن حب رسوله الكريم ﷺ.

هكذا عكف الكحلاوي على الغناء الديني عازمًا على عدم تركه حتى النهاية، نظرًا لحبه الكبير لها، ربما لأنها أعادته إلى الله ورسوله الكريم وفيها أحس بحلاوة الإيمان، ومنذ هذا الوقت لوحظ غلبة حالة من الصوفية الجارفة عليه، وبدأ حرصه الشديد على أداء فريضة الحج سنويًا بدون انقطاع، وبالفعل تكرر حجه لـ"٤٠" مرة بشكل متواصل، ولم يقطع الحج طيلة أربعين عامًا متواصلة، وكان يحرص على الاعتكاف في منطقة "جبل القصير" على البحر الأحمر ظنًا منه أن القطب الصوفي الكبير "أبي الحسن الشاذلي" يحرص على الحضور لهذا المكان لقراءة القرآن معه، قبل العودة مرة أخرى لمقامه القريب من هذا المكان، كما كان للفنان الصوفي تجلياته النابعة عن إلهام صوفي ونزعة تغلبه في التقرب إلى الله تعالى وأوليائه الصالحين، كهجرة لعمارته الفخمة المطلة على النيل بحي "الزمالك" الراقي، ليستقر في منطقة مدافن الإمام الشافعي التي بنى لنفسه بها مسجدًا يحمل اسمه يجاور مدفنه.

تعبد وإنشاد

كان مسجدًا صغيرًا في حجمه بسيطًا في تصميمه وإنشاءه وليس به تكلف في العمارة ولا في النقوش، وأبرز ما فيه آية الإخلاص التي كتبت بطريقة فنية جميلة، وفي مواجهة باب الجامع يوجد باب آخر يوصل إلى الاستراحة وعلى يمينه يستقر مدفنه في هذا المكان الذي ارتبط به في حياته، وكان معروفًا عنه اعتكافه أسبوعًا أو ما يزيد ليقرأ القرآن ويصوم، وليخرج متشبعًا بروح الإيمان وبلحن جديد، فالفن كان بالنسبة له دعوة للحض على الفضيلة من خلال الكلمة المغناة، ومن ثم رفض التغني لأي مخلوق إلا لسيد الخلق أجمعين سيدنا محمد ﷺ.

يذكر أن الكحلاوي لم يغن طيلة حياته لملك ولا رئيس مثلما فعل كل المطربين، وتروى عنه واقعة رفضه الغناء للزعيم جمال عبد الناصر رغم طلبه شخصيًا، وكان رده نصًا كما تذكره العديد من المصادر "لن أمدح أحدًا بعد رسول الله ﷺ ".

هكذا مكث الفنان الصوفي محمد الكحلاوي في مسجده قريبًا من الأموات راعيًا للأحياء في المنطقة المحيطة به، ساعيًا صافيًا مجتهدًا لله تعالى باحثًا عن كل السبل المتاحة لإرضائه، مادحًا لرسوله الكريم ﷺ ينفق ماله ابتغاء مرضات الله ويسعى وراء موالد الأولياء الصالحين ويتقرب من المشايخ، ويخرج في سبيل الله حتى توفاه الله في الخامس من أكتوبر وهو في حياته لم يندم على شيء سوى الفترة التي قضاها في عدم طاعة الله، وكان يطلق علىها دائمًا "جاهلية محمد الكحلاوي".

الشيخ محمد جبريل

قارئ القرآن محترف الابتهال والإنشاد

يعد أحد أهم رموز التلاوة والإنشاد خلال السنوات الأخيرة الماضية في العالم، بدأ نبوغه مبكرًا للغاية، حيث حفظ القرآن الكريم وعمره ٨ سنوات، ليؤهله ذلك للفوز بالمركز الأول على مستوى العالم الإسلامي في العديد من مسابقات حفظ القرآن سواء داخل مصر أو خارجها، ومن أهم هذه المسابقات "المسابقة الدولية لترتيل القرآن بمكة المكرمة" واشترك فيها ٦٠٠٠ متسابق من مختلف دول العالم، وكعادته فاز بالمركز الأول، ليس هذا فحسب بل على الرغم من صغر سنه إلا أن شهرته في عالم التلاوة القرآنية والابتهالات الدينية فاقت العنان.

هو محمد محمد السيد حسنين جبريل وشهرته الشيخ محمد جبريل، ولد في العاشر من أبريل عام ١٩٥٨ بقرية طحوريا التابعة لمركز شبين القناطر بمحافظة القليوبية، ونشأ في جو يغلب عليه الاعتدال الديني فوالده محمد السيد كان يقرأ القرآن في مسجد السيدة عائشة رضي الله عنها، وشقيقه سيد جبريل مدرس العلوم الشرعية بمعهد الفتح الديني الأزهري بالمعادي، وشقيقه الأكبر نصر حافظ للقرآن الكريم ويحفظه للنشء، ومن ثم شب متشربًا بحب القرآن وعكف على دراسته والوقوف على أحكام التلاوة والتجويد، إضافة لعشقه التقليدي لفن اللإنشاد والتلاوة الذي كبر معه.

ليسانس الشريعة

التحق الشيخ محمد جبريل بالأزهر الشريف بعد اتمامه لحفظ القرآن، وحصل على ليسانس الشريعة والقانون من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر الشريف، وأثناء دراسته بالمرحلة الجامعية، كان موعده مع الشهرة، عندما شارك في المسابقة القرآنية التي أجريت على مستوى جمهورية مصر العربية وفاز بالمركز الأول، وواصل بعد ذلك تفوقه في المسابقات حتى حصل على المركز الأول في المسابقة القرآنية لترتيل القرآن الكريم بمكة المكرمة عام ١٩٨٦م، متفوقًا بذلك على أكثر من ٦٠٠٠ حافظًا للقرآن الكريم من مختلف أنحاء العالم.

وعقب تخرجه من الجامعة عين بوزارة الأوقاف المصرية إمامًا وخطيبًا، ليبدأ مشواره الدعوي حيث بدأ يؤم المصلين في صلاة التراويح بمسجد عمرو بن العاص منذ عام ١٩٨٨م، ثم انتقل إلى التليفزيون الأردني ليعمل هناك قارئًا ومنشدًا ومبتهلًا ومعدًا للبرامج الدينية لفترة طويلة، وكذلك قام بالتدريس في الجامعة الأردنية لمادة القرآن الكريم في الجامعة الأردنية، وخلال فترة عمله بالتليفزيون الأردني بدأت علاقته بوسائل الإعلام تتوطد، وبدأ شهرته تنطلق من أفاق المحلية إلى العالمية، حيث اعتاد السفر إلى مختلف بلدان العالم، وذلك لإمامة المصلين في المساجد الكبرى، وغالبًا ما تكون رحلاته خلال شهر رمضان تلبية لدعوات المراكز الإسلامية المنتشرة في مختلف بلدان العالم، وهناك ألقى العديد من المحاضرات في المراكز الإسلامية بها في علوم القرآن الكريم، والآن يشرف على إقامة المركز الإسلامي العالمي لعلوم القرآن بالقاهرة "دار أبي بن كعب" والذي تم افتتاحه بصفة تجريبية.

حياة عادية

جهود الشيخ محمد جبريل الدعوية لا تحصى ولا تعد، ويرجع ذلك إلى أنه متعدد المواهب فهو منشد ومبتهل من الطراز الأول، واتضح ذلك جليًا من خلال

العديد من الابتهالات التي سجلها للتليفزيون المصري خلال حلقات برنامج "آية ودعاء" بالقناة الأولى، إضافة إلى العديد من الحلقات التي سجلتها القنوات الفضائية له، كذلك قام بتسجيل القرآن الكريم بصوته في الإذاعة والتليفزيون بالأردن والإذاعات العربية والعالمية، وقام بتسجيل أكثر من مصحف مرتّل بصوته في الأسواق المحلية والعالمية على شرائط كاسيت واسطوانات وأول مصحف مرتل سجله بمسجد عمرو بن العاص، كما قام جبريل بتسجيل القرآن الكريم إلكترونيًا بلندن.

يقول الشيخ محمد جبريل:حياتي عادية، فأرتدى البدلة والجلباب والعباءة، وأقود السيارة وأمارس الرياضة خاصة كرة القدم، واختراق الضاحية، والسباحة، وهذه الألعاب الرياضية تساعدني في ضبط عمليات التنفس عند قراءتي للقرآن الكريم الذي أختمه كل شهر خمس مرات، وهذه الرياضات أمارسها بالنادي الأهلي أو نادي الصيد أو نادي النيل أو نادي الزمالك، ومن أصدقائي عدد كبير من الرياضيين، وغيرهم كثيرون وأسأل الله أن يجعلني سبب خير ونافع للإسلام والمسلمين وأن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم... إنه سميع مجيب.

وعن أمنيته الخاصة يقول الشيخ محمد جبريل: لقد أكرمني الله ؟ عز و جل ؟ بالصلاة والإمامة في بيته العتيق المسجد الجامع عمرو بن العاص الذي بناه ووضع قبلته أكثر من ثمانين صحابيًا من صحابة ﷺ وأكرمني الله بإمامة المسلمين في المراكز الإسلامية في أكثر بلدان العالم، وبقى أن أؤم المصلين في بيتيه المباركين الحرمين الشريفين: المكي والمدني، وكذا المسجد الأقصي أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وأدعو له في كل صلاة وكل دعاء أن يحرره ويعود للمسلمين، فأسأل الله ؟ سبحانه وتعالى ؟ أن يرده لنا ويرزقنا الصلاة فيه.

رحلة القرآن

وعن بداية رحلته مع القرآن الكريم، يؤكد محمد جبريل دائمًا أنه أتمم حفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة من عمري على يد الشيخ أمين سليمان والشيخ عامر عثمان في كتاب قرية طمورية بمحافظة القليوبية، وأنه صلى إمامًا بالناس وهو في سن الثانية عشرة من عمري، وحصل على المركز الأول في مسابقة القرآن الكريم على مستوى المحافظة، وساعتها حمله والده ليتسلم الجائزة وسط إعجاب الحاضرين لصغر سنه في ذلك الوقت، ثم حصل على المركز الأول على مستوى الجمهورية، وتم ترشيحه للمسابقة الدولية التي أقيمت بماليزيا، وفاز بها، ثم رشح لحضور مسابقة العالم الإسلامي في حفظ القرآن الكريم، والتي تقام بمكة المكرمة.

كذلك يرى أن حفظ القرآن أمر ضروري لكل مسلك شريطة أن يكون على يد معلم متمكن يقوم بتدريب من يريد أن يتعلم القرآن، حتى يصحح له ما يقرؤه، ومن ثم يكون الحفظ والقراءة على أساس سليم مصداقًا لقوله تعالى للنبي ﷺ: "وإنك لَتُلَقَّي القرآن من لَدُنْ حكيم عليم"، والتلقي والمشافهة أمر مهم جدًا لتعلم القرآن، ثم يأتي بعد ذلك سماع الأشرطة؛ لذا يجب على كل أب أن يلحق ابنه بالكتاب، وهو في سن الثالثة من عمره حتى يتعلم الحروف الهجائية بجانب حفظه للقرآن الكريم، ولكن للأسف الشديد فالكثير من المسلمين الآن يتجهون لتعليم أولادهم اللغات الأجنبية أكثر من اهتمامهم بحفظ القرآن الكريم، بل أصبح أساتذة الجامعات لا يتقنون قراءة القرآن الكريم، ولذا فإن الاهتمام بالكتاتيب سيخرج لنا أجيالًا تحفظ كتاب الله، كذلك يجب أن تكرس الدولة جهودها لخلق جيل من الشباب المسلم العارف بقيمة القرآن والإنشاد الديني والابتهال، لما لكل هذه الآليات من دور فعال في تربية النفوس.

وأوضح أن فن الابتهال من الفنون التي تعاني ضعفًا كبيرًا في هذه الآونة نتيجة لغياب التواصل بين كبار المهنة وصغارها، فالتواصل بين الأجيال في هذا الإطار ضرورة واجبة، لكي تكون لهذه الفنون الإسلامية القدرة على منافسة هذه الصنوف المبتزلة كأغاني الفيديو كليب العارية، التي تخصص لها محطات فضائية بأكملها، في ذات الوقت لا تجد الفنون الإسلامية من يرعاها ويقوم على نشرها وتوفير سبل التطوير لها.

الدعوة إلى الله

وعن رحلاته الدعوية، يقول: سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية بولاياتها ومدنها المتعددة مثل نيوجرسي وأوهايو وفلوريدا وهيوستن وشيكاغو ولوس انجلوس ونيويورك، ورغم أنني لم أفعل ذلك بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، إلا أنني أعتقد أن أمريكا تربة خصبة للإسلام، لأن الشعب الأمريكي –على خلاف حكومته– لا يحمل موقفًا مسبقًا ضد العرب والمسلمين، وقد لمست في كثير من أفراده بحثًا عن الذات وعن الحق وعن الدور الذي خلقوا لأجله، ولذلك فإن دور المسلمين حاليا هو تجاوز الدعاية السوداء ضد الإسلام التي يتعرض لها هذا الشعب، وسافرت كذلك إلى فرنسا وتركيا والكاميرون ونيجيريا وماليزيا والسعودية والكويت والإمارات، ومعظم الدول العربية تقريبًا.

وعن ذكرياتك الدعوية في هذه الدول، يقول جبريل: من أسعد ذكرياتي ما حدث في المركز الإسلامي بالعاصمة البريطانية لندن عندما صلى ورائي أناس لا يتحدثون اللغة العربية، وكان الإقبال هائلًا والتأثر واضحًا على الوجوه وفي العيون، وبعد انتهاء الصلاة التف حولي ثلاثة رجال وامرأتان، وبدؤا يستفسرون عن هذا الكلام الذي كنت أقوله، وعندما عرفوا أنه القرآن شعروا بحلاوة الإيمان تضيء قلوبهم فأعلنوا إسلامهم! وحدث هذا أيضًا في أمريكا، حيث أشهر سبعة رجال وامرأتان

إسلامهم أمامي وزار بعضهم مصر، وحضروا معنا ختام القرآن في شهر رمضان بمسجد عمرو بن العاص.

ويواصل: أذكر أنه في لبنان صلى ورائي عشرات الآلاف من المسلمين، وكم كانت سعادتي بذلك لأنهم كانوا من مختلف الطوائف (سنة وشيعة) وهذا لا يحدث إلا نادرا، وقد لمست في ماليزيا مدى حب الناس وتعلقهم بالقرآن وتقديرهم لقراء القرآن المصريين بشكل خاص، وأذكر أن خمسة من الماليزيين أسلموا على يدي بعد سماعهم القرآن.

ويصف الشيخ محمد جبريل الشعور الذي يداخله كلما تسبب في دخول فرد إلى الإسلام، سواء كان ذلك حبًا في صوته تلاوةً أو إنشادًا بأنه لا يستطيع المرء أن يصف هذه اللحظات الجميلة، التي أثرت في نفسي جدًا، والتي تؤكد عظمة هذا القرآن الكريم الذي ينفذ إلى القلوب سريعًا ويؤثر فيها، وصدق الله تعالى حين يقول في سورة الحشر: "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون"، وأنا أضع دائمًا نصب عيني قول النبي ﷺ: "لَأَن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من الدنيا وما فيها".

وعن مكانة تركيا التي اعتاد على زيارتها سنويًا، يؤكد جبريل أن هذا البلد لها مكانة خاصة في نفس كل مسلم باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية الأخيرة، فهي دائمًا تذكرني بملك المسلمين الغابر، ولمن لا يعلم فإن تركيا – رغم ما تعرضت له من حملات تغريب بهدف سلخها من تراثها الإسلامي– فإن بها أكثر من ٥٠٠ ألف دار لتحفيظ القرآن الكريم للنشء الصغير وللكبار أيضًا، وهم عندما يستمعون لتلاوة القرآن كأن على رؤوسهم الطير، وذلك رغم بعض العادات والتقاليد الخاطئة التي يمارسونها، وهم محبون جدًا للإسلام والمسلمين، وهناك مساجد شهيرة كمسجد

السلطان أحمد والفاتح والسليمانية وغيرها ممن تستقبل الدعاة لدين الله وشريعته السمحاء استقبالًا عظيمًا.

ويشدد جبريل على أنه هناك موصفات لابد توافرها في كل من يختار طريق الدعوة، وتبدو جليًا في قول الحق تبارك وتعالى: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن"، وقوله تعالى : "وذكّر بالقرآن من يخاف وعيد"، ومن ثم فالمفترض في الداعية أن يكون مخلصًا في دعوته محبًّا لها، وأن يكون قدوةً وملمًا أكثر بما يدعو إليه بشتى جوانبه، ويفضل أن يكون على دراية بلغة أجنبية على الأقل حتى إذا ما سافر للخارج ليدعو إلى الله كان مطمئنًا إلى وصول المعلومة بشكل صحيح كما أراد بعيدًا عن أي تحريفات في الترجمة.

ويحدد الشيخ جبريل في هذا الصدد الصعوبات التي تواجه الدعوة الإسلامية، التي هي على حد وصفه متعددة؛ ومنها على سبيل المثال، عدم اختيار الداعية المناسب لحمل هذه الرسالة، وعدم موافقة سلوك بعض المسلمين لأوامر الشرع ونواهيه، ما يعكس على الإسلام سلبيات هو بريء منها، وأنا مقتنع تمامًا بأن خير دعوة للإسلام هي سلوك المسلمين أنفسهم في كل مكان، والتاريخ شاهد على ذلك فقد انتشر الإسلام في إفريقيا عن طريق التجار الصادقين في معاملاتهم مع الآخرين، موضحًا أنه من أبرز هذه الصعوبات أيضًا الإعلام الذي يسيطر عليه اليهود، والذي يشوه صورة الإسلام والمسلمين في العالم واصفًا إياهم بأنهم أناس دمويون.

ويرى جبريل أن هذا يحتم على المسلمين إنشاء كيان إعلامي كبير لمواجهة هذه الدعاية السيئة والمشوهة عن الإسلام، لذلك يجب أن تتبني منظمة المؤتمر الإسلامي مشروع إنشاء قناة فضائية إسلامية تتوجه بعدد من اللغات الأجنبية لشرح الإسلام الصحيح ومبادئه السامية وأخلاقه العالية، لأن هذا من أهم التحديات التي تواجهنا منذ أحداث سبتمبر التي استغلها أعداء الإسلام في وسائل الإعلام الإسلامية

لتقديمه على أنه رديف للإرهاب، مشيرًا إلى أن الإعلام الصهيوني استغل أحداث الحادي عشر من سبتمبر للتأثير سلبًا على موقف المسلمين، حيث ألصق التهمة بالمسلمين، وهذا أثر بشكل كبير على صورة الإسلام في دول الغرب، لدرجة أن اضطرت بعض المسلمات إلى خلع الحجاب خوفًا من أن يتعرضن لأعمال عدوانية، واضطر بعض المسلمين إلى إخفاء مظاهر الالتزام الديني التي كانوا يمارسونها مثل إطلاق اللحية وأداء الصلوات في أماكن العمل.

الوسيلة المتاحة الآن لإخراج المسلمين من هذا النفق المظلم الذي دخلوا فيه طواعية، على حسب الشيخ محمد جبريل، العودة إلى ديننا الحنيف وفهمه فهمًا جيدًا؛ فاليهود لا عهد لهم ولا ميثاق، ولا يحترمون كلمة ولا يحفظون عهدًا، ونحن أصحاب حق، وهذا الحق يحتاج إلى قوة لكي تعود أرضنا المغتصبة، فالله عز وجل يقول: "ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز"، وهو القائل أيضًا: "الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور".

الشيخ محمد صلاح كبارة

مبتهل سليل أسرة المنشدين

ذاكرة الإسلام ذاخرة بالأعلام الذين خدموا في تفان أهداف هذا الدين القويم، ومن عظيم دور بعض هذه الأسماء يصعب تعريفهم لأنهم أغنياء عن التعريف بما تركوه من تراث علمي وآثار عملية جعلت من اسمهم أعلامًا لا يمكن أن يسبقها تعريف، وهكذا نقف عاجزين أما هذا الاسم الكبير في عالم التلاوة والابتهال، هو مبتهل عرفه المسلمون في إذاعات القرآن الكريم بتلاواته المتميزة وابتهالاته الجادة التي يغلب عليها الصفاء، من ابتهالاته: "لك الحمد، لا اله الا الله، ويا رب هيئ لنا من امرنا رشدا".

هو الشيخ محمد صلاح الدين كبارة العالم الكبير وأحد أعلام القراء والمبتهلين في العالم الإسلامي، إنه شيخ القراء صاحب المدرسة المتفردة في أصول الألحان وقراءة القرآن وتجويده، وهذا ما حدا بالإذاعات والمرئيات إلى التنافس على بث تسجيلاته، فذاع صيته أصقاع الدنيا وكان مرجعًا في علم القرآن وفن التجويد والإبتهال، وهو ابن أكبر العائلات في طرابلس من حيث العدد أنها عائلة آل كبارة، هذه العائلة الفاضلة التي يعود تاريخها إلى زمن طويل مضى عندما قدمت من المغرب العربي إلى طرابلس الشام، وكانت تسمى بآل الكبير ومع مرور الزمن أصبح اسمها في طرابلس آل كبارة، وتفرع من هذه العائلة آل الطبارة وهم من أهالى بيروت فآل الطبارة وآل الكبارة ينتسبون إلى جد واحد كان يسكن طرابلس.

ولد الشيخ محمد صلاح الدين كبارة في طرابلس الشام عام ١٩٢١م في أحضان أسرة عريقة في التدين والتقوى والصلاح، وكان والده الشيخ محمد على يوسف كبارة من كبار المنشدين أصحاب الصوت الجميل، لذلك غلب على أكثر أولاده الصوت الجميل، وكان هذا الشيخ المنشد صديقًا حميمًا للشيخ عمر الرافعي الشاعر الشامي المعروف ببلاغته، والذي كان ينظم الأشعار والقصائد ثم يلحنها وينشدها الشيخ على كبارة مع أولاده وتلاميذته، وهكذا ترعرع الشيخ محمد في هذا الجو الروحاني مع والده وإخوته وسط مدرسة كانت مرجعًا للأناشيد الدينية، لذلك كان يردد دائمًا رحمه الله لقد رضعت الألحان مع الحليب في صغري.

حفظ كتاب الله

تلقى الشيخ محمد صلاح كبارة علومه الأولية في بلده طرابلس اللبنانية "الآن"، حيث حصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٤م من دار التربية والتعليم الإسلامية، ثم تابع دراسته في القسم الشرعي في نفس الدار وحصل على الشهادة الشرعية عام ١٩٣٨م، ثم عكف بعدها على حفظ القرآن الكريم على يد فضيلة أحد أعلام قراء مدينة طرابلس فضيلة الشيخ محمد نصوح البارودي رحمه الله، وذلك بتوجيه وتشجيع من سماحة مفتي طرابلس الشيخ محمد نديم الجسر، حتى أتم حفظ القرآن في عام ١٩٤١م.

وبعد أن أتم حفظ كتاب الله سافر الشيخ محمد كبارة إلى مصر قاصدًا الأزهر الشريف، حيث رغبته في تلقى علوم القراءات المتواترة على يد أحد مشايخ هذا الجامع الكبير المتمكنين من هذه العلوم القرآنية، وبالفعل أتم القراءات السبع عن طريق الشاطبية على يد الشيخ والعالم الجليل عامر السيد عثمان، وكان ذلك في عام ١٩٤٥م، ليعود إلى بلدته طرابلس مرة أخرى محملًا بالعلوم الشرعية، إلا أنه قرر العودة إلى مصر مرة أخرى عام ١٩٦٠م؛ ليتم القراءات العشر عن طريق الشاطبية

والدرة، وكذلك على يد الشيخ الراحل عامر السيد عثمان واجيز بذلك أيضًا، وكان قد تم تعيينه أثناء فترة تواجده الأولى بمصر من قبل وزارة الأوقاف المصرية قارئًا في مسجد الفتح بميدان رمسيس عامًا كاملًا، وكان في ذلك ينافس أهم قراء مصر في هذه الآونة، خاصة وأن هذا المسجد يعد من أهم مساجد القاهرة.

عين الشيخ محمد صلاح كبارة عقب عودته من مصر المرة الأولى من قبل مديرية الأوقاف الإسلامية في لبنان مدرسًا للقرآن الكريم والقراءات وكان ذلك في عام ١٩٤٩م، وقام بتدريس هذه المادة في القسم الشرعي بدار التربية والتعلم الإسلامية منذ عام ١٩٥١ وحتى عام ١٩٨٨م، وتخرج على يديه أجيال متعاقبة من حفظة كتاب الله والقائمين على رعايته وحفظه من كل يد ترغب العبث به.

مدرس القراءات

وفي عام ١٩٥١م، صدر مرسوم بتعينه مدرسًا بدار الإفتاء بطرابلس وقارئًا في المسجد العمري الكبير في بيروت وفي الأذاعة اللبنانية، حيث بدأ مشوار جديد مع الابتهال الذي أحبه كثيرًا وورث قوة أداءه من والده المنشد الكبير، وتعاقدت معه الإذاعة على تسجيل عدد كبير من الابتهالات والتلاوات، ولتميزه وكفاءته التي تشهد عليها أعماله الخالدة التي تركها، صدر في عام ١٩٧٤م، قرار من مفتى الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد بتعينه شيخ قراء طرابلس لكونه أجدر الناس بهذا المنصب، فهو خبير في القراءات العشر، ونابغة في الأداء الصوتي واللحني، فصوته رحمه الله كان رخيم وعناية في فن التجويد كانت فائقة.

انتقل الشيخ محمد صلاح كبارة في عام ١٩٨٢م، من القسم الشرعي بدار التربية والتعليم الإسلامية ليبدأ في تدريس مادة القرآن الكريم وتجويده في معهد طرابلس الجامعي للدراسات الإسلامية، واستمر عمله في هذا المعهد حتى عام ١٩٩٥م، كما شارك في الهيئة التأسيسية للمعهد.

يذكر أنه في عام ١٩٩٢م، قام مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ الدكتور محمد رشيد قباني باختيار الشيخ محمد صلاح قباني ليكون نائبًا لرئيس مجلس إدارة الأوقاف الإسلامية في طرابلس، بالإضافة إلى توليه رئاسة لجنة التحكيم في كل المسابقات التي تجريها الهيئات والمؤسسات الإسلامية في لبنان.

وعلى صعيد عمله الإذاعي، تعاقدت الإذاعة الفلسطينية بالقدس الشريف مع الشيخ كبارة في عام ١٩٤٧م لتلاوة القرآن الكريم في الإذاعة وفي حرم المسجد الأقصى المبارك، واستمر عمله في القدس عام ١٩٤٨ حيث عاد إلى موطنه طرابلس، وفي عام ١٩٦٤ تعاقد مع الإذاعة الأردنية لتلاوة القرآن الكريم في المسجد الأقصى طيلة شهر رمضان المبارك، وفي عامي ١٩٦٧– ١٩٦٨م مثل لبنان في المؤتمر الثاني والثالث لإتحاد قراء العالم الإسلامي في دولة باكستان.

شهرة فائقة

ذاعت شهرة الشيخ محمد صلاح كبارة وفاقت حدود المحلية بعد تعاقد الإذاعة الفلسطينية معه، وتمثيله لوزارة الأوقاف اللبنانية في مؤتمرات اتحاد القراء، وهذا ما دعا وزارة الأوقاف الكويتية للتعاقد معه في عام ١٩٧٢م وعام ١٩٧٩م؛ لتلاوة القرآن الكريم في مساجدها طيلة شهر رمضان المبارك، ومثلها فعلت المملكة العربية السعودية حيث تعاقدت معه في عامي ١٩٧٤– ١٩٧٥ لكي يعمل في الرياض كمراقب للقراءات في البرنامج السعودي العام.

ومن طرابلس لبنان إلى طرابلس ليبيا يسافر الشيخ كبارة في عام ١٩٨٢م؛ لكي يشترك في عضوية لجنة التحكيم الدولية في مسابقة القرآن الكريم في طرابلس الغرب– ليبيا– وقد من الله عليه بتسجيل المصحف المرتل في اذاعة القرآن الكريم فيها، وما بين عام ١٩٨٤ و١٩٩٣ عين أربع مرات عضوًا في لجنة التحكيم الدولية

لحفظ كتاب الله وتجويده وتفسيره بمكة المكرمة، والتي تشرف عليها وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية.

ومن ليبيا إلى المغرب كانت الشهرة والسمعة الطيبة، ومن ثم دعته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المملكة المغربية في عام ١٩٩٣– ١٩٩٧ لحضور الدروس الحسنية وتلاوة القرآن فيها، وفي عام ١٩٩٥ دعى إلى إيران ليكون أحد أعضاء لجنة التحكيم في مسابقة القرآن الكريم.

ذكور ستة

تزوج الشيخ محمد صلاح كبارة سيدة لبنانية وأنجب منها ستة ذكور، وهم: "موفق، عامر، مصطفى، بلال، هلال، خلدون، وكان رحمه الله معتدل القامة حنطي اللون يزدان رأسه بعمامة متواضعة، دمث الأخلاق ذو طلعة مهيبة قريب من القلب سلس في الكلام طيب المعشر صاحب نكتة ظريفة لطيف الدعابة محبًا للخير ساعيًا للناس بشتى أنواع الخير.

هكذا كان الشيخ صلاح الدين كبارة قارئًا ومبتهلًا وعاملًا بالقرآن الكريم إلى أن أكرمه الله وتوفاه في رمضان وفي العشر الأخير منه، وهو كما وصفه النبي ﷺ العتق من النار، حيث توفي الشيخ الجليل في ٢٣ رمضان ١٤٢٠ الموافق له آخر يوم من سنة ١٩٩٩، وفي يوم الجمعة بالذات، الذي يقول النبي ﷺ في فضله: "خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة".

الشيخ محمد عبد الهادي

أرض مصر معروف عنها منذ قديم الأزل أنها أرض الفنانين، أرض النماء الخصبة التي تنبت كل ما يخدم دين الله عز وجل، فإنه بلا شك نزل القرآن في مكة والمدينة وقرأ في مصر، ومع القرآن دائمًا ما يقرأ الابتهالات والتواشيح، فالصلة بين الاثنين قوية للغاية، لا يمكن أبدًا أن ينفصلا.

ومن هذه الأصوات المصرية الخاشعة، التي أنجبتها أرض مصر الطيبة وأنبتتها منبتًا طيبًا الشيخ محمد عبد الهادي أحد رمز الابتهال في مصر خلال القرن العشرين، وذلك بما لعبه من دور كبير في النهوض بالحركة الفنية المصرية على الصعيد الديني، وذلك بما قدمه من عشرات الملاحم الشعرية ومئات الألحان والابتهالات التي لا تزال تذاع في الإذاعات العربية والإسلامية إلى الآن.

ولد الشيخ محمد عبد الهادي في عام ١٩٢٨من قرية الوفائية التابعة لمركز الدلنجات بمحافظة البحيرة شمال مصر، وفي ريف مصر الخلاب نشأ وترعرع على صفا الطبيعة، وكعادة أهل الريف عندما بلغ الفتى الرابعة من عمره آخذه والده وقام بتسليمه إلى شيخ كتاب القرية لكي يبدأ مشوار حفظ القرآن الكريم، وبهمة ودأب شديد بدأ الفتى الصغير مشواره مع كتاب الله.

إجازة القرآن

أتم الفتى محمد عبد الهادي حفظ القرآن الكريم على يد شيخ الكتاب ونال منه الإجازة في تلاوة القرآن الكريم، وكان لا يزال عمره خمسة عشر عامًا، وبدأ

يواظب على قراءة القرآن في المناسبات والاحتفالات، التي كانت تقام بمدينة رشيد ؟ أحد المدن الهامة شمال مصر ؟ والقريبة من قرية الوفائية مسقط رأس الشيخ عبد الهادي.

انتقل الشيخ عبد الهادي في هذه الأثناء وعقب الانتهاء من دراساته الأزهرية بمدينة رشيد إلى القاهرة؛ لكي يدرس الشريعة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف، وكان معروف عنه في شبابه النبوغ، وبالفعل حصل على درجة الليسانس من جامعة الأزهر تخصص الدراسات الإسلامية، ليتولى الأزهر بعد تخرجه تعيينه كمدرس للمواد الشرعية بمعهد رشيد الابتدائي الأزهري، ويواصل الشيخ اجتهاده عقب تعيينه، ويتدرج في المناصب ليصل إلى درجة موجه عام بمنطقة البحيرة الأزهرية.

الشيخ محمد عبد الهادي أثناء عمله بالأزهر الشريف لم يكن مقتنعًا بما هو فيه، فإن طموحاته أكبر من ذلك بكثير، فهو شاب موهوب ذو صوت حسن ولديه أيضًا قدرات موسيقية قلما توجد عند غيره، لذلك كان حريصًا أثناء فترة تواجده بالجامعة أو عقب تخرجه وتسلمه العمل بالأزهر الشريف على حماية مواهبة بالدراسة والتطبيق، فكان يتولى إحياء الحفلات بأداء الابتهالات والأناشيد الدينية والتواشيح المتميزة.

مدرس العلوم الشرعية

واستمر الحال مع الشيخ محمد عبد الهادي سنوات طويلة يعمل كمدرس أو شيخ معهد صباحًا ومقرئ ومبتهل ومنشد مساءًا بل وملحنًا أيضًا، إلى أن واتته الفرصة عندما تقدم لاختبارات الإذاعة لاختيار مبتهلين، واستطاع أن يحقق بعض ما يسعى إليه عندما اجتاز الاختبارات وتم اعتماده مبتهلًا بالإذاعة، وكان ذلك عام ١٩٨١م، وكان عمره في ذلك الوقت يتعدى الخمسون عامًا.

كان الشيخ محمد عبد الهادي يمتلك موهبة فذة في الإنشاد والتلحين والابتهال، إلا أن انشغاله بالعمل في الأزهر ضيع عليه فرصة كبيرة لكي يكون أحد رموز هذا الفن، وعلى الرغم من اعتماده بالإذاعة متأخرًا إلا أنه حقق شهرة واسعة أيضًا، فإنه عقب اعتماده في الإذاعة بشهور قليلة توجهت له العديد من الدعوات لزيارة بعض بلدان العالم لإحياء حفلات هناك، ومن هذه الدول التي قبل الشيخ دعوتها وسافر إليها استراليا وتنزانيا وجزر القمر.

كتب الشيخ محمد عبد الهادي ولحن العديد من الأغنيات والقصص الشعرية والملاحم، التي سجلت معظمها للإذاعة المصرية وباتت الآن تراث ثمين يدلل على عبقرية صاحبه، ومن هذه الأعمال ملاحم "زينب بنت رسول الله ﷺ" و"مولد النور" و"حسان بن ثابت" و"مصعب بن عمير" و"مقتل الحسين" و"مناسك الحج" و"أنوار مكة".

تراث كبير

كذلك قدم الشيخ محمد عبد الهادي لإذاعة وسط الدلتا ملحمة "صابرة والمظلومة"، وملحمة "صابرين"، وملحمة "الكريم لا يضام" إخراج الإذاعي عبد الفتاح غنيم، وأخيرًا ملحمة "نور اليقين" من إخراج عبد المجيد شكري.

كما غنى الشيخ محمد عبد الهادي للأم والابنة، وقدم أغنية "ولدي" في أحد الأفلام السينمائية، الذي كثيرًا ما يذاع على القنوات التليفزيونية الأرضية والفضائية.

رحل الشيخ محمد عبد الهادي عن عالمنا في شهر نوفمبر عام ٢٠٠٠م، وذلك بعد رحلة مديدة مع فن الإنشاد والابتهال الإسلامي؛ ليكون بذلك أحد مجددي الفن الإسلامي في القرن العشرين، إلا أن الغريب في الأمر أنه منذ تاريخ

وفاته يلاحظ تجاهل الإذاعة المصرية له بشكل كبير، وهذا ما شجع ولده خالد محمد عبد الهادي بالسعي قدمًا للاحتفاظ بتراث والده، الذي يشتمل على دور كبير من الأعمال حيث تقدر أعماله بقرابة ٣٠٠ ملحمة وأكثر من ٥٠ أغنية دينية وشعبية واجتماعية، بالإضافة إلى أكثر من ٥٠ ابتهال وذكر.

مشاري راشد العفاسي

مداح الرسول القارئ

قارئ للقرآن الكريم ومنشد كويتي، يتمتع بصوت عذب وقوة في التحكم بطبقات الصوت وروعة الأداء، له العديد من الإصدارات التي انتشرت في الوطن العربي والإسلامي والعالم.. هو مشاري بن راشد بن غريب بن محمد بن راشد العفاسي هو.

ولد مشاري راشد يوم الأحد ٥ سبتمبر عام ١٩٧٦م، وعكف منذ الصغر على حفظ كتاب الله ودراسة قواعد تلاوته وتجويده، فقد درس القراءات العشر، ودرس تفسير القرآن بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وأجيز في قراءة عاصم رواية حفص من طريق الشاطبية، ثم سافر إلى مصر للحصول على اجازات من كبار مقرئ العالم الإسلامي مثل الشيخ الحصري.

درس الشيخ مشاري العفاسي في الجامعة الإسلامية السلفية في المدينة النبوية، وتتلمذ على يد كبار علماء ومقرئ المدينة النبوية في كلية القراءات، وخلال السنة الثالثة له في الكلية كانت علاقاته قد توطدت مع عدد من مقرئ القرآن الكريم في السعودية وخصوصًا الشيخ أحمد العجمي، الذي أفاد كثيرًا من خبرته في عالم التلاوة، وربما يكون العجمي أحد أسباب نجاح العفاسي.

دراسة القرآن

انتهى العفاسي من دراسته بالمدينة المنورة وحصل على الإجازة من كبار قارئ القرآن في المملكة العربية السعودية وكذلك مصر، إضافة إلى حصوله على المؤهل

الجامعي من الجامعة الإسلامية بالمدينة، وهنا قرر العودة إلى مسقط الميلاد بالكويت ليتولى مسئولية إمامه الصلاة في أكبر مساجد الكويت وهو مسجد الدولة الكبير بالكويت، وبات خلال سنوات قليلة أكثر القراء الخليجيين شعبية، وربما تكون موهبته سواء على صعيد التلاوة والانشاد لعبت دورًا كبيرا في ذلك، إضافة إلى الفضائيات التي تتكالب على تسجيلاته.

مشاري العفاسي شخص موهوب فإنك عندما تستمع إلى صوته العذب، وهو يتلو ويجود بالقرآن الكريم و ينشد القصائد والكلمات العذبة سوف تسافر بروحك معه إلى عوالم وأزمان غير تلك التي نعرفها، وسوف تتذكر فقط أنك وحيد أمام كلمات الله تعالى، وتتعرف للمرة الأولى على تلك الأسرار، التي أودعها المولى كلماته، ومن ثم لم يكن غريبًا أن يحظى هذا الصوت بهذه المكانة الكبيرة؛ ليصبح نجمًا في سماء التلاوة ودنيا المقرئين رغم أنه لم يتجاوز عامًا.

ويعكف الشيخ راشد هذه الآونة على زيارة مصر للانتهاء من مشروع تسجيل أكثر من خاتمة ورواية للقرآن واحدة برواية حفص عن عاصم وثانية برواية شعبه عن عاصم والثالثة برواية ورش، والرابعة برواية قالون، ويتولى مراجعة هذه القراءات والإشراف عليها مجموعة من كبار العلماء في مصر، للإشراف على المشروع والاستماع إلى كل ما يسجل حرفًا بحرف وذلك قبل إقراره بشكل نهائي، ومن هؤلاء المشايخ عبد الحكيم عبد اللطيف، والشيخ الدكتور أحمد العصراوي رئيس لجنة تصحيح المصحف الشريف في الأزهر والذي استقطع الكثير من وقته لإنجاز هذا العمل، وبالفعل تم إنجاز جزء كبير من هذا المشروع الكبير، الذي تعود بدايته وفق مشاري راشد إلى أكثر من ١٠ عامًا، حيث صدر له بالأسواق أول شريط كاسيت مسجل في عام ، وكان يضم هذا الشريط سورة غافر وفصلت والشورى ثم توالت التسجيلات بعد ذلك على صعيد تلاوة القرآن الكريم، كما سجل أيضًا عدد كبير من

الأناشيد الإسلامية المنتشرة الآن في الأسواق على اسطوانات مدمجة وشرائط كاسيت.

منافسة شريفة

وعلى الرغم من تميز الشيخ مشاري على صعيد الإنشاد الديني، نظرًا لموهبة الفذة ودرايته بالمقامات الموسيقية ودراسته لفنون الإنشاد، إلا أن مشاري القارئ دائمًا ما يظلم نظيره المنشد، وهذا أمر ليس بجديد فالشيخ عبد الفتاح الشعشاعي المقرئ مثلًا ظلم الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي المبتهل والمنشد، وهذا الحال تجده ظاهرًا للغاية عند الشيخ العفاسي، ورغم ذلك عشقه للإنشاد الديني وإيمانه برسالته دائمًا تكون دافع له على الاستمرار على صعيد الإنشاد، ويبدو أنه يتحد في هذا مشاري راشد المقرئ ويسعى لكي يثبت له أن الإنشاد الديني فن قديم لن ينقرض أبدًا، وأنه سيأتي اليوم الذي يعود فيه رونق هذا الفن الإسلامي، وهذا بدوره ما يدفعه للاستمرار في الإنشاد، فشيء جميل للغاية أن تسمعه ينشد "فراق الحبيب" وتستمع بكلمات نشيد "وأحسن خلق الله"، ولكي تسعد عليك بنشيد "منهاج الهدى"، ولكي يستقر الإيمان في صدرك لا تتردد عن سماعه في "فأشهد" و "هناك رسول الله"، و"إلا صلاتي"، ولا تمانع من سماع مناجاته مع خالق السماوات والأرض في "يا لله"، و"إلهي لا تعذبني".

عن بدايته في عالم الإنشاد والتلاوة، يقول مشاري راشد: جاءت البداية بتأثري بأصوات كنت أستمع إليها منذ الصغر؟ منهم الشيخ علي جابر إمام الحرم المكي سابقًا، والذي كان له الدور الأكبر في حبي للقرآن بعد هذا بدأ احتكاكي بمشايخ المقرئين والمحفظين في كل من الكويت والسعودية بعدها قمت بتلاوة القرآن الكريم كاملًا أمام الشيخ المصري عبد الرافع رضوان الشرقاوي، وهو من أشهر علماء المدينة المنورة ثم كررت هذه التلاوة مرة أخرى على مسامع فضيلة الشيخ المصري أيضًا

أحمد عبد العزيز الزيات وهو شيخ المشايخ عمره سنة وقرأ على يديه كبار مشايخ هذا العصر ومنهم من توفاه الله الآن ويؤكد العفاسي أنه يعكف على سماع القرآن من الكل، إلا أن الإنسان في بعض الأوقات يميل إلى قراءات بعينها موضحًا أن مصر ولادة المجيدون، حيث برز فيها عدد لا حصر له من القراء المتميزين كالشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ المنشاوي وهؤلاء مشايخ قراءاتهم باقية وأنا من الذين يحبون الاستماع إليهم والتعلم منهم أيضًا، وأنه في ذات الوقت يعجبه من قراء الجليج قراءة إمام الحرم المكي سابقًا على جابر وإمام الحرم النبوي السابق أيضًا محمد أيوب الدعوة بالتكنولوجيا.

ويذكر الشيخ مشاري العفاسي أن العصر الحالى يشهد حالة من التقدم الاتصالي ومن ثم يجب أن يبحث كل مسلم عن التوظيف القويم لهذه الإمكانيات المتاحة لخدمة دينه وأمته، وأن هذا ما يحركه دائمًا على صعيد إنشاء موقع على الإنترنت ليكون منبرًا للدعوة، وأن الذي ساعده في هذا الأمر شاب كويتي يدعى صالح المسلَّم هذا الإنسان الموهوب صغير السن الذي قام بدوره بتصميم وتجهيز الموقع الذي يحمل اسم "العفاسي" تبرعًا منه منذ ما يقرب من ٥ سنوات، والآن يزور الموقع أكثر من ١٠٠ألف زائر شهريًا حتى تخطى عدد الزوار حتى الآنمليون زائر والغريب في الأم أنني لا أقوم بزيارة الموقع كثيرًا، لأني تركت أمر الإشراف عليه لصديقي صالح المسلم الذي قام بدوره بتحميل كل أعمالي على هذا الموقع من تلاوات قرآنية أو أناشيد إسلامية، ويكون تواصلي مع رواد الموقع عن طريق المشرف.

ويرى الشيخ مشاري العفاسي أنه من مظاهر التجديد على صعيد الدعاة ورجال الدين الإسلامي في السنوات الأخيرة حرص رجال الدين من علماء أو دعاة أو مقرئين على حسن المظهر، وهذا أمر لا يعيب رجل الدين أبدًا، لأن الله جميل يحب الجمال وهذا أمر مهم حث عليه الدين، وبالتالي يجب أن تكون ثياب الإنسان وحتى حذاءه

جميلًا، وهذا المظهر الجيد يجب أن يكون عنوانًا للمضمون لأن المظهر وحده لا يكفي أبدًا، فالقارئ أو المنشد أو المبتهل يجب أن يتسم بالمرونة في طريقة الأداء مشيرًا إلى أن القراء والمنشدين والمبتهلين اعتادوا على تلقي القرآن وحسن الكلام من أفواه كبار المشايخ، إلا أن الأداء على صعيد التلاوة له أركان أساسية، وهي التجويد حسن الأداء حسن الصوت والخشوع في التلاوة، التي قال فيها النبي ﷺ خير الناس قراءة من إذا سمعتموه حسبتموه يخشى الله، ومن ثم هذا جانب مهم جدًا في التلاوة أي أن يقرأ المقرئ بخشوع مع مراعاة التجويد والصوت دون أن يطغى عنصر على الآخر من أناشيده إلهي لا تعذبني.

- ربِ رحماك
- مالي وقفت على القبور
- ليس الغريب
- قريح القلب
- تغيرت المودة والإخاء
- إذا قربت .. - يا حلو معنى الطفولة
- يمه
- إلهي
- أيا من يدعى الفهم
- خاتم الرسل
- حصان رزان
- جزي الله

- مع الله
- حنيني
- ربِ سبحانك
- دعوني أناجي
- يا ربنا
- طلع البدر علينا
- أسير الخطايا
- إلهي سيدي
- أرحم الرحماء
- متفرد
- أنشودة الأذان
- أبا الأنبياء
- قف بالخضوع
- أنا العبد
- قلبي الصغير
- النعمة زوّاله
- أشكو إلى الله
- أنت رحماني
- يا سروري

- كتاب الله
- أنت المعين
- أصلي عليك
- أرى الدنيا
- أشد الجهاد
- ليلة القدر
- يد الإبداع
- يا من يرى
- بكت عيني
- بيت الله "
- فراق الحبيب
- وأحسن خلق الله
- يا الله

الشيخ ممدوح عبد الجليل

"مسئولية كبيرة يحملها شباب المبتهلين والمنشدين المصريين نظرًا لصعوبة المهمة الموكلة إليهم والمتمثلة في حماية هذا الفن الذي يقومون عليه من الاندثار والهروب من الساحة ليتركها لفنون الفيديو كليب التي تسعى بلا هوادة لنشر الابتذال والثقافة الغربية التي لا تناسب قيم وحضارة الدين الإسلامي" .. هذا ما كان المبتهل الشيخ ممدوح عبد الجليل رحمة الله عليه يؤكد عليه مرارًا وتكرارًا.

وكذلك كان الشيخ ممدوح عبد الجليل يشير إلى أنه فن الابتهال الديني بدأ في الظهور في أواخر القرن وفي أوائل القرن أسمع ما يسمى بعصر المشايخ الأعلام منهم الشيخ محمد عبد الرحيم المسلوب، موضحًا أن هذه الفترة كانت تشهد خلطًا ملحوظًا بين الموشح والتوشيح الديني.

الموشح والتوشيح

وكان يفرق دوما بين الموشح والتوشيح الديني بقوله: الموشح الذي اخترعه إبراهيم الموصلي وإسحاق الموصلي في العصر العباسي تلاهما أبو الحسن عبد الرحمن بن رافع ولقبه زرياب هو عبارة عن كلام في الغزل وليس كلامًا دينيًا، وأنه في ذات الوقت بالنسبة للصياغة اللحنية لهذا الموشح فهي من مقامات كثيرة ويحدث الانتقال من مقام إلى آخر، أما التوشيح الديني فيأخذ شكل التنوع المقامي مع الشعر الدنبي بمقامات مختلفة بحسب الذي يقال سواء كان دعاءً أو مديحًا، وأنه قد برع في ذلك الفن ـ في عصر المشايخ ـ مع الشيخ المسلوب كثير مثل درويش الحريرى

وإسماعيل سكر وعلي محمود وطه الفشني وكانت لهم صياغة لحنية رائعة الشيخ ممدوح عبد الجليل مبتهل من جيل الوسط الذين تتلمذوا على يد كبار المبتهلين أمثال علي محمود وسيد النقشبندي ونصر الدين طوبار والشيخ طه الفشني، حيث ولد الشيخ في السادس والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٩٤٦م بطرة الحيطة، التي تعرف الآن بكوتسيكا، وحرص والده على تعليمه في الأزهر لأنه كان دومًا يرى فيه شيخ حافظًا للقرآن عالمًا بأمور الدين، وبالفعل انصاع الولد لرغبات والده وتخصص في الدراسات الإسلامية.

هكذا عشق الشيخ ممدوح عبد الجليل قراءة القرآن الكريم والإنشاد الديني منذ صغره، حيث سعى والده بجد أن يخلق منه مبتهلًا أو قارئًا للقرآن وساعده على ذلك عذوبة صوته ومرونته بشكل ساعده على حسن استغلال قدراته الصوتية.

الإنشاد والابتهال

تخصص الشيخ ممدوح عبد الجليل في دراسة القراءات وقواعد الإنشاد والابتهال، واستطاع خلال سنوات قليلة أن يكون على قدرة وكفاءة تؤهله للقيام بإحياء الحفلات، ومن ثم أتاح له كبار المهنة الفرصة لمشاركتهم في حفلاتهم وهم في ذلك يرغبون في خلق أجيال جديدة تتولى مسئولية النهوض بهذا الفن الإسلامي.

شارك الشيخ عبد الجليل في إحياء الأمسيات الدينية مع المشايخ سيد النقشبندي وطه الفشني والفيومي، وهذه المشاركات مهدت له طريق الشهرة، فسرعان ما قرر الاستقلال بنفسه والقيام بإحياء سهرات كاملة بدون مشاركة أحد؛ ليكون بعد ذلك منافسًا لمن علموه وشجعوه وهذا أمر لا يعبه، بل قرر التقدم للإذاعة لكي تعتمده مبتهلًا فيها وحدث ذلك بالفعل في بداية عام ١٩٧٧م، حيث اعتمد مبتهلًا ومنشدًا بالإذاعة والتليفزيون المصري.

وعقب اعتماد الشيخ ممدوح عبد الجليل كان أول ابتهال قدمه للإذاعة قد أداه في فجر العشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٧٧م في مسجد الإمام الحسين رضي الله عنه، فكانت بداية من أطهر بقاع الأرض مسجد الإمام الحسين.

كان رحمه الله معروف عنه الجدية في العمل والحرص على تقديم أحلى ما عنده، فهو ممن لا يقبلون بالمتاح بل السعي وراء الأفضل كان أسلوبه في الحياة، وكان يقول دائمًا: مفردات الابتهال تتكون من النص والصوت الحسن والنغم والارتجال أما مصادر الابتهال أو نصوصه فمتنوعة إما شعرًا دينيًا أو صوفيًا أو حكمًا أو دعاء، وأنه يدخل هذا الفن ضمن أنواع المدائح المتنوعة ما بين صوفي وهو أعرقها والتواشيح الدينية وتكون بين الشيخ والبطانة والابتهالات وتكون بالارتجال والألحان الفورية والغناء الديني ويكون إما بالعربية الفصحى أو العامية وأيضًا المديح الشعبي الديني وهو منتشر في صعيد مصر والأقاليم.

التفاني في العمل!

وكان ينصح شباب المبتهلين دائمًا بضرورة التفاني للحفاظ على هذا الفن، باعتباره مظهرًا من مظاهر الثقافة الإسلامية له بصماته وتأثيره في الثقافات الأخرى، كما طالب كثيرًا بضرورة إنشاء مدارس خاصة لتعليم الإنشاد الديني خاصة بعد ظهور مدارس له في الخارج مثل إيران وتركيا وسوريا والمغرب.

كذلك لعب الشيخ ممدوح علي الجليل دورًا ملموسًا في النهوض بدور فرقة الإنشاد الديني بدار الأوبرا المصرية التي تولى أمر رئاستها وقيادتها في الفترة ١٩٩١، تلك الفرقة التي أسسها الموسيقار الراحل عبد الحليم نويره في سنة ١٩٧٢م، وبدأت أولى حفلاتها بقيادته عام ١٩٧٣م، وكان الهدف من إنشائها هو الحفاظ على التراث الغنائي الديني من الاندثار، ومن ثم كلف نويره اثنين من أشهر المنشدين في ذلك الوقت وهما الشيخ محمد الفيومي والشيخ عبد السميع بيومي بتحفيظ الفرقة كل ما يحفظونه من ألحان دينية لأئمة المشايخ أمثال الشيخ علي محمود والشيخ إسماعيل

سكر والشيخ سيد موسى والشيخ درويش الحريرى وغيرهم وكلف أيضًا الموسيقار الراحل عبد المنعم الحريرى بوضع المقدمات واللزمات الموسيقية لهذه الأعمال حتى يتم تقديمها للجمهور في شكل عصري متطور.

وبالفعل بدأت الفرقة عروضها على مسرح سيد درويش بالهرم بعدد ١٦ منشدا و حوالي ٢٥ موسيقيًا إلى أن وصل عدد المشدين حتى اليوم حوالى ٣٠ منشدًا و ٤٠ موسيقيًا، وقد تولى قيادة الفرقة بعد رحيل المايسترو عبد الحليم نويره عدد كبير من الموسيقين ومنهم الشيخ ممدوح عبد الجليل.

الفرقة الوحيدة

كان الشيخ ممدوح عبد الجليل يرى أن فرقة الإنشاد الدنني تعد هي الفرقة الوحيدة بجمهورية مصر العربية من حيث التخصص والتفرد بما تقدمه من أعمال وألحان دينية تراثية ومعاصرة، كما تدفع الفرقة بأصوات شابة ومدربة على الإنشاد إلى ساحة الابتهالات الدينية، لذلك فدورها خطير للغاية ولابد من تعزيز الاستفادة منها، وتحويلها إلى مفرزة للأصوات الجيدة القادرة على الابتهال والإنشاد.

تراث الشيخ ممدوح عبد الجليل في الإذاعة المصرية كثير سواء على صعيد الابتهالات أو الأناشيد الإسلامية والأدعية والموشحات، فخزائنه طوال حياته لم تنضب أبدًا، ودائمًا كان عنده الجديد، الذي يدخل الفرحة والسعادة على كل من ينتظرونه سواء في صلاة الفجر أو في حفلات الأوبرا التي حرص على الاشتراك بها مهما كانت التزاماته، وذلك كله خلاف الحفلات الخاصة التي كان يتولى إحيائها، ومن الابتهالات التي قدمها نذكر هذا المقطع:

لا إله إلا الله

الأول بلا بداية

والآخر بلا نهاية

سبحانه هو المعبود

الغفور الودود

ذو العرش المجيد

فعال لما يريد

وفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ديسمبر من عام ٢٠٠٦م، رحل الشيخ الجليل ممدوح عبد الجليل بعد معانة مع المرض استمرت ما يقرب من ثمانية أيام مات، وأنتقل إلى جوار ربه، وأقيم لعزائه سرادق كبير بمنطقة "كوتستكا"، حيث كان يسكن، اجتمع فيه كبار قراء الإذاعة والتلفزيون المصري، وكان في مقدمتهم القارئ الشيخ حسن عوض الدشناوي والشيخ الدكتور فرج الله محمود الشاذلي والشيخ محمود محمد الخشت والشيخ ياسر عبد الباسط عبد الصمد ابن القارئ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، كما حضر من إذاعة القران الكريم الدكتور عبد الله الخولي والأستاذ عبد الناصر أبو زيد.

الشيخ نصر الدين طوبار

صوت يحلق في رحاب السماء والخشوع

وقف متباهيًا فخورًا بعروبته وإسلامه منشدًا لأحلى أبيات شعر المديح النبوي في قاعة "ألبرت هول" بالعاصمة البريطانية "لندن"، وذلك في ختام فاعليات المؤتمر الإسلامي العالمي، فتعرف عليه الجمهور الأوروبي وأعجبوا به، وقدروه خير قدرة، وكتبت عنه قائلة: "صوت الشيخ نصر الدين طوبار يضرب على أوتار القلوب ويحلق في رحاب السماء والخشوع ".

هو نصر الدين طوبار، المولود في عام ١٩٢٠م بمدينة المنزلة بمحافظة الدقهلية وسط دلتا مصر، ونشأ في أسرة تحب العلم وتحاول جادة أن تنشره بين أبناءها، فجده لأبيه هو الشيخ حسن طوبار أحد كبار مشايخ مدينة المنزلة، وأحد زعمائها الكبار، الذين شاركوا في مقاومة الغزو الفرنسي، ليس هذا فحسب بل هو ممن خططوا للحرب ضد فرنسا وانتصروا عليه في عدة مواقع أهمها موقعة الجمالية، وقد أقيم له عرفانًا بهذا الدور متحفًا في المنزلة، ليضم كثيرًا من آثاره وصور كفاحه.

تاريخ مشرف

هذا التاريخ المشرف حدا بوالده أن يكون حريصًا على إلحاقه بالتعليم، خاصة وأن نبوغه ظهر مبكرًا، وبالفعل بدأ مشوار تعليمه في مدينة المنزلة في مدارسها الإبتدائية، وبعد إتمام التعليم في هذه المرحلة انتقل إلى المدرسة الخديوية الثانوية، إلا

أن والده اكتشف حب ولده الصغير للغناء والإنشاد وتلاوة القرآن، حيث لاحظ عزوفه في أحيان كثيرة عن الاستذكار بحثًا عن التفنن في التلاوة والإنشاد.

هذا بدوره دفع الأسرة إلى اتخاذ قرار بتحويله من المدرسة الخديوية إلى المدرسة الأولية ليتعلم اللغة العربية ويحفظ القرآن الكريم، وبعد أن حفظ القران الكريم ذاع صيته في مدن وقرى محافظة الدقهلية، حيث كان يحرص أعيان هذه المحافظة على دعوته لإحياء حفلات الصفاء الروحي، سواء كان ذلك بالتلاوة القرآنية أو بأدائه لبعض الأناشيد والتلاوات الإسلامية، تلك التي يعشقها أهالي الريف المصري عامة، وبالفعل خلال سنوات قليلة استطاع أن يحقق شعبية فاقت حدود المحافظة إلى المحافظات المجاورة، ليصبح نجم التلاوة والإنشاد في دلتا مصر خلال هذه الآونة.

لم يكن الأمر عند نصر الدين طوبار يقتصر على السعي للانتشار في دلتا مصر وحسب، بل كانت أحلامه وطموحاته تدفعه دائمًا للبحث عن فرصة للوصول إلى كل المستمعين العرب والمسلمين، فالشيخ محمد رفعت كان مثله الأعلى، ولأن صوته كان رائعًا نصحه كل من استمع إليه أن يتقدم لاختبارات الإذاعة؛ ليخرج صوته إلى الملايين وهذا ما يرمي له ، وبالفعل تقدم إلى هذه الاختبارات، ولكن المدهش في الأمر، أن اللجنة لم تختاره وتكرر هذا معه لست مرات متتالية، ولا أحد يعرف حتى الآن أسباب رفض اللجنة المتكرر لهذا الصوت الرائع.

إلا أنه لم ييأس من ست مرات رفض فيها من قبل لجان الإذاعة، بل أصر وتقدم للمرة السابعة لتختاره اللجنة هذه المرة في مجال الإنشاد الديني عام ١٩٥٦م، ليبدأ من هذا التاريخ مشوار جديد مع النجومية والتألق في عالم الإنشاد والتلاوة، وهذا المشوار الذي تجاوز ربع قرن من الزمان، استطاع هذا المبتهل أن يحفر فيه لنفسه مكانة مرموقة بين المبتهلين في ذلك العصر الذهبي لفن الإنشاد والابتهال.

فن غنائي

الإنشاد الديني الذي برع فيه نصر الدين طوبار كان عبارة عن الفن الغنائي، الذي يتناول موضوعات لها صبغة دينية كالعشق الإلهي، أو مدح الرسول ﷺ أو الوحدانية والملكوت الأعلى وغيرها، وأن النجاح في هذا الفن يستوجب توافر شروط بعينها في المنشد والمبتهل، أهمها، أن يكون من ذوي الأصوات الجميلة الجذابة، وأن يكون صافي الذهب في علاقته مع ربه، وأن يكون قادرًا على فهم اللغة العربية تلك التي سوف ينشد كلماتها، ومن ثم تاريخيًا نجد أنه لم يتصد لهذا اللون من الغناء إلا كبار المشايخ والمنشدين، الذين كانوا يحيون الليالي الرمضانية، والمناسبات الدينية، بصوت جميل نديٍّ يجمع المئات بل الآلاف من عشاق هذا الفن حوله.

وكان – رحمة الله عليه ؟ يذكر أن قوالب فن الابتهال والإنشاد كغيرها من الفنون تتطور ويلحق بها التجديد على مر الزمان، حيث أصبحت لها أشكال متعددة وأسماء كثيرة تمجِّد الدين الحنيف، وتدعو لوحدة المسلمين، وتشجب الرذيلة، وتدعو إلى الفضيلة، وتمدح رسول الله ؟ ﷺ وآل البيت، داعيًا إلى ضرورة الاهتمام بهذا الصنف الفني لما يمثله من أهمية كبيرة في نشر الإسلام والدفاع عن ثقافته القويمة.

شهد مسجد "الخازنداره" بمنطقة "شبرا مصر" بالقاهرة، فترة مهمة من حياة الشيخ نصر الدين طوبار، حيث تم تعيينه عقب انتهاءه من التعليم قارئًا للقرآن الكريم ومنشدًا للتواشيح به، وكان ذلك أبان عقد الأربعينات، هذه الفترة التي شهدت تألقه وبداية ظهوره كمبتهل معروف بين كبار المبتهلين في هذه الآونة ـ كالشيخ علي محمود ثم الشيخ طه الفشني وغيرهما من كبار مبتهلي ومنشدي مصر – كما شهد مسجد الحسين صوت هذا البلبل المغرد في فترة رمضان من كل عام.

يعد الشيخ نصر الدين طوبار أول من أنشد ابتهال مخصوص لأبطال حرب أكتوبر إبان فترة الحرب عام ١٩٧٣م، وهو ابتهال "سبح بحمدك الصائمون" و"انصر بفضلك يا مهيمن جيشنا"، وهو في ذلك كان على قدر كبير من العلم بقدرة وأهمية هذه الأناشيد والابتهالات الدينية في تحريك المشاعر لدعم الجيش المصري في حربه ضد إسرائيل الذي يحتل أرضه، وكان في ذلك سباقًا، كذلك كان الشيخ الراحل يعتبر الشيخ الشعشاعي أخًا روحيًا له، وغالبًا ما كان يبتهل في الفجر وراء قراءة الشيخ الشعشاعي، وكان معروفًا عنه حبه لصوت الشيخ القارئ مصطفى إسماعيل.

فرقة الإنشاد

وعقب اعتماد الشيخ طوبار بالإذاعة المصرية كقارئ ومنشد اختير عضوًا في فرقة الإنشاد الديني التابعة لأكاديمية الفنون بمصر، هذه الفرقة التي تم تأسيسها للحفاظ على هذا الفن وتطويره وحمايته من المؤثرات السلبية، واستطاع هذا الشيخ الكبير أن يطور دورها على الصعيد المصري والعربي والإسلامي، وذلك بتطوير دورها وتفعيله ليكون حائط صد ضد كل ما يهدد هذا الفن الإسلامي الرفيع، وهذا كله آهله ليتولى دور الإشراف والقيادة لأعمال الفرقة.

وفي عام ١٩٨٠م، تم ترشيحه للمشاركة في احتفالية مصر بعيد الفن والثقافة، ليتم تكريمه من قبل وزارة الثقافة المصرية، اعترافًا من القائمين على هذه الوزارة بدوره الكبير في إثراء الحياة الفنية والثقافية بما لعبه من دور كبير في تطوير فرقة الإنشاد القومي التابعة لوزارة الثقافة، إضافة إلى مشاركاته المجدية على صعيد إعداد أجيال جديدة من المنشدين الشباب.

كما تم ترشيحه من قبل وزارة الإعلام المصرية وشاركتها في ذلك وزارة الأوقاف، ليشارك في فاعليات المؤتمر الإسلامي العالمي بالعاصمة البريطانية "لندن"، وهناك

قدم أروع ما أنشد في حياته على مسرح قاعة "ألبرت هول" الشهيرة بلندن، وحاز على إعجاب كبير من الحضور المسلمين وغير المسلمين، لدرجة أن بعض من الحضور الذين لا يعلمون العربية تفاعلوا معه بشكل أذهل العرب.

سفير الإسلام

ومن لندن عاصمة بريطانيا، ذاعت شهرة الشيخ المصري في كل المدن الأوروبية، وبدأت توجه إليه الدعوات لحضور مثل هذه الحفلات ليشدو فيها ويغرد بأحلى الأنغام، ليكون خير سفيرًا للإسلام والمسلمين بالتزامه وخلقه القويم، فالإعجاب بصوته كان غالبًا للدرجة التي حدت بالصحافة الألمانية أن تقول عنه: "صوت الشيخ نصر الدين طوبار يضرب على أوتار القلوب"، ليس هذا فحسب بل حاز "طوبار" بالتكريم الرسمي من قبل كل الدول الغربية والإسلامية التي زارها إعجابًا وتقديرًا لصوته العذب.

وبعد رحلة طويلة مع فن الإنشاد والابتهال، والذي استطاع خلالها أن يقدم عددًا كبيرًا من الابتهالات والتواشيح الدينية الرائعة، فاضت روح الشيخ الجليل نصر الدين طوبار إلى بارئها، وكان ذلك في السادس من شهر نوفمبر عام ١٩٨٦م.

من ابتهالاته

١- دموع العين جارية.
٢- الأمر أمرك.
٣-يا من هداه.
٤-أشرق الحق.
٥- سبحان من جعل الأرض
٦- الحوت والعنكبوت.
٧- يا حنان يا منان.
٨- حنيني.
٩- ربي هو الله.
١٠- أكرمنا في المعاش.

١١- تستبيحي. **١٢- حسبي رضاك.**

١٣- يسبح لك الفضاء. **١٤- أذان الفجر.**

١٥- يا نصير المظلومين. **١٦- قصة اليتيم.**

١٧- يا ذا الجلال والإكرام. **١٨- سبحانك اللهم.**

١٩- يا كريم العطاء.

ياسين التهامي

مزاوجة بين إيقاعات النغم الشرقي والألحان الشعبية

"صاحب صوت إنساني فضفاض يستوعب أي إنسان على اختلاف لغته وموسيقاه" هكذا وصفته هيئة الإذاعة البريطانية في حلقة خاصة عنه، وروعة أداءه أغرت المستشرق الألماني "كولن" ليخصص له جزءًا كاملًا في كتابه "الموسيقى الشرقية"، وصوته المميز دفع الباحث الأمريكي "مايكل فروشكوف" لتخصيص دراسة كاملة عن أدائه الصوتي، وأخيرًا هو بطل أطروحة جامعية تقدم بها أحد طلاب الماجستير بكلية اللغة العربية حول الشعر الصوفي.

ياسين التهامي أحد أشهر أركان دولة الإنشاد والابتهال الديني في العالم الإسلامي، عبقرية فنية مالكة لزمام أمرها تنسب إليه رسالة ماجستير في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عن الشعر الصوفي، وله فضل كبير في إحياء دور الشعر الصوفي وجعله على ألسنة العامة قبل الخاصة، فقبله كانت قصائد المتصوفة من خواص الخواص؛ مكانها بطون الكتب أو حلقات الذكر ومجالس شيوخ الطرق؛ فجاء التهامي بإنشاده لها في الموالد والميادين والحفلات، ليجعله شعرًا مستساغًا على ألسنة العوام في القرى والنجوع والأرياف أشبه بالفولكلور الشعبي.

ميلاد ونشأة

ولد المنشد والمبتهل ياسين التهامي في ٧ ديسمبر سنة ١٩٤٩ بقرية الحواتكة بمحافظة أسيوط في صعيد مصر، ونشأ في بيئة دينية عرفت بالتصوف والعناية بالنشيد

الصوفي، وكان والده الشيخ تهامي حسنين من الصالحين، وعكف منذ صغره على حفظ القرآن الكريم، وتعرف خلال هذه الفترة على عمالقة الشعر الصوفي أمثال عمر بن الفارض ومنصور الحلاج ومحيي الدين بن عربي وغيرهم، وكان لهذا أكبر الأثر في ولوجه باب الشعر الصوفي منشدًا فيما بعد، إلا أنه لم يكمل دراسته الثانوية بالأزهر الشريف، ليبدأ حياته بالإنشاد الديني في الموالد والحفلات الدينية بقرى ونجوع الصعيد حتى سطع نجمه في منتصف السبعينيات، ليصبح نجم الإنشاد الديني الأول في مصر منافسًا بذلك الشيخ أحمد التوني سيد هذا الفن في ذلك الوقت، خاصة لدى أهل الصعيد الذين أصبح ملبس وهيئة ياسين "موضة" شبابهم، الذين أصبحوا يعلقون صوره وألبوماته مثلما يعلق شباب المدن صور "عبد الحليم حافظ".

لم تقتصر شهرة ياسين التهامي على صعيد مصر أو حتى مختلف أقاليم مصر، بل ذاع صيته خارج مصر والعالم العربي، حيث عكف على إحياء عدد كبير من الحفلات في لندن وباريس وفي ألمانيا وهولندا وأسبانيا وفنلندا والولايات المتحدة الأمريكية وغير ذلك من مدن وعواصم دول العالم، خاصة في مهرجانات الموسيقى الروحية.

والمعروف عن ياسين التهامي حبه للارتجال في أدائه التصوفي، حيث لا يحبذ التقييد بالنصوص في الإنشاد الصوفي الذي يعد حالة من الهيام والذوبان في حب وعشق الله تعالى، ومن ثم فكل ما يقال وينشد ويغني هو في الأساس فتح من الله تعالى عليه لا يحتاج فيه إلى تقيد بل يرتجل في أدائه بعيدًا عن قيود اللحن أو الكلمات، وإن كان ذلك كله لا يعني أبدًا عدم إجادته للإنشاد النمطي بل على العكس فهو قدير أيضًا في هذا التوجه، فإنه على الرغم من أنه لم يحصل على دراسات أكاديمية أو علمية يمكن اعتباره أفضل منشد عربي في علاقته مع الموسيقى وتوظيفه لها في الإنشاد؛ فهو يتعامل مع المقامات الموسيقية بحساسية نادرة، ويتنقل

فيها، ويزاوج بينها بمهارة لم يعرفها المنشدون الدينيون، وربما لا يوازيه في هذه الموهبة سوى المطرب العملاق صباح فخري.

لون جديد

يتفق الموسيقيون أن التهامي استطاع عن جدارة أن يبتدع بهذه الموهبة لونًا جديدًا في الإنشاد الديني لم يكن موجودًا من قبل، حيث حرصه على المزاوجة بين إيقاعات النغم الشرقي الأصيل والنغم الشعبي، وكذلك بإدخاله الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها في هذا الفن، وقدرته على التنوّيع من المقامات الموسيقية المتعارف علها؛ فطوّر بذلك في الإنشاد الديني، وميزه عن أنواع مختلفة قد تتداخل معه؛ مثل الابتهال الديني الذي قدمه كبار المنشدين من أمثال النقشبندي ونصر الدن طوبار وطه الفشني، ليس على مستوى الكلمة فقط.

ليس هذا فحسب، بل استطاع أن يجدد في لحنه وشكل أداءه لهذه الأناشيد والابتهالات؛ فقد ظل الابتهال أقرب للدعاء والمناجاة، ولا يرتبط فيه المبتهل بإيقاع بعينه، بل هو حر في أغلب الأحيان، وتصاحبه دائمًا بطانة تردد خلفه من دون موسيقى غالبًا، بينما نجح التهامي في تطوير لونًا جديدًا من الإنشاد، يعتمد على إدخال المقامات الشرقية بما فيها المقامات المهجورة على القصائد الدينية والتنويع بينها، وكذلك الآلات الموسيقية على اختلافها من كمان وناي وقانون وأكورديون، ومزج بين إيقاعات النغم الصعيدي وإيقاعات النغم الشرقي الأصيل، كما اختلف أيضًا في طريقة الأداء التي تعتمد أساسًا على العلاقة مع الجمهور وتقوم على التفاعل والتأثير المتبادل، خاصة أنه يقدم في الميادين والموالد والشوارع مباشرة إلى الجمهور.

موسيقى التهامي رغم جمالها إلا أنها تبدو وكأنها تسير على غير قاعدة، وأحيانًا متشابهة في أغلب ما ينشده؛ فإن هذا يصدق فقط على الاستهلال، أما فيما بعد الاستهلال تكون أكثر انتظامًا، ولكل قصيدة موسيقاها الخاصة بها، حتى إن بدت

للوهلة الأولى متشابهة، وفي معظم الأحيان تفرض القصيدة المقام الموسيقى الخاص بها، والذي قد يتغير في القصيدة الواحدة، فهناك قصائد تغير مقامها ولحنها الآن من مرحلة عمرية لأخرى ومن مكان لآخر، وكثيرًا ما يدخل تغييرًا ليس على المقام الموسيقي فقط، بل وعلى مستوى الكلمات وأبيات القصيدة نفسها.

طاقة هائلة

يؤكد الموسيقيون المهتمون بهذا الفن الغنائي أن ياسين التهامي من القلائل الذين يملكون طاقة ومساحة صوتية هائلة، للدرجة التي أغرت الباحث الأمريكي "مايكل فروشكوف" بتخصيص دراسة كاملة عن أدائه الصوتي، ودفعت المستشرق الألماني "كولن" إلى أن يفرد له قسمًا مستقلًا في كتابه عن الموسيقى الشرقية؛ باعتباره مرتجلًا لنغم صوفي جديد من دون تعليم أو دراسة أكاديمية، موضحين أن صوته هو ما أتاح له إنشاد أصعب القصائد بمقامات لم يؤدِّ عليها إلا كبار الفنانين، من أمثال: ناظم الغزالي وأم كلثوم وصباح فخري.

وأشاروا إلى أنه في أدائه أقرب إلى البوح، الذي يخوض في مساحات واسعة في النفس الإنسانية، تجعله يؤثر في ذاته دون معرفة معنى الكلمات أو حتى اللغة العربية نفسها؛ فهو صوت إنساني بامتياز يحسه كل من يسمعه حتى ولو لم يكن يفهمه، ومن ثم كان أول ما وصفته به هيئة الإذاعة البريطانية في حلقة خاصة أنه "صاحب صوت إنساني فضفاض يستوعب أي إنسان على اختلاف لغته وموسيقاه"، وأنه بعد أن أحيا ليلة كاملة في مهرجان الموسيقى الروحية الذي تستضيفه العاصمة البريطانية "لندن" كل عام، علق بعض الحضور بأن "صوته وألحانه تفتح في النفوس طرقًا من النور والإيمان"، واختصر مقدم الحفل ليلتها كلمته قائلًا: "ياسين شيء مختلف لا نستطيع تقديمه؛ لذا فمن الأفضل أن نتركه يقدم نفسه من خلال غنائه وموسيقاه وشكل أدائه الذي يشبه البوح".

والمعروف في عالم الموسيقى أن الصوت يبلغ قمته وطاقته في التأثير حين يتكامل مع شكل أداء صاحبه المميز، هكذا جاء نجاح وتفرد التهامي، حيث الصوت القوي والأداء المتميز، حتى إن باحثة بريطانية تدير مركزًا للعلاج النفسي في لندن قدمت لمصر لإعداد دراسة سيكولوجية عن إنشاده كطريقة للعلاج النفسي، تسعى لتطبيقها في مركزها الخاص للعلاج النفسي في لندن، وحين قابلته في ليلة مولد العارف بالله عمر بن الفارض، بعد أن استمعت له بعجب شديد رغم أنها لا تعرف من اللغة العربية شيئًا، معلنة أنها لا تحتاج فهم هذا الكلام النابع من القلب؛ وأنها تشعر بهوهذا يكفيها.

استحضار الحالة

يعتمد التهامي في إنشاد على أسلوب فريد له خصوصيته؛ إذ يحرص دائمًا على التواصل المستمر بينه وبين فريق اللحن والجمهور وطبيعة وأجواء الزمان والمكان، وهو في ذلك يبحث دائمًا عن ما يسميه "استحضار الحالة"؛ حيث التفاعل المستمر وتبادل المشاعر والأحاسيس مع الجمهور وانفعالاته؛ لذلك فهو لا يقوم بالإنشاد داخل استوديو، وإنما في الموالد واللقاءات المفتوحة مع الجمهور؛ لأن التسجيل في الاستوديو برأيه أقرب إلى الغناء "الاستهلاكي" الذي يُعد مسبقًا للجمهور، كذلك هو أيضًا لا يقوم بأي بروفة للحن أو لكلمات ما ينشده من قصائد، بل يأتي عفوًا ومن تلقاء نفسه أو حسب ما يسميه "الحالة".

التهامي عندما يغني يرتقي المسرح، وهو في ذلك يحاول أن يختار من قصائد الصوفية إلقَيها بالمقام، إلا أنه في الغالب يحدث أن الحالة هي التي تلهمه اختيار القصيدة وكذا اللحن، وهما متغيران بحسب "الحالة"، ويبدو ذلك واضحًا من تغير لحن وكلمات القصيدة الواحدة؛ فكثيرًا ما أنشد القصيدة الواحدة على أكثر من لحن أو مقام، وربما أنشد على المقام الواحد أكثر من قصيدة، وربما غيّر في القصيدة

الواحدة والمقام الواحد بحسب الحالة التي ينشد فيها، والتي يخلقها الزمان والمكان والحدث والناس من حوله أو حالته الشخصية أيضًا التي تتدخل في ذلك، لذلك مرات تأتي القصيدة ترقص طربًا، ومرات أخرى تأتي هي نفسها تقطر حزنًا كالنشيد الجنائزي.

بداية من جمهور الموالد والطرق الصوفية وهم القطاع الأكبر، انتهاء بشريحة من أبناء النخبة الباحثين عن الروحانيات أو الغرائبية أو الجذور في مواجهة تيار العولمة المكتسح حتى لأغانينا، هم جمهور التهامي المحبين لفنه والمقبلين عليه بلا هوادة، هذا الجمهور ذو التركيبة الفريدة مثل شكل وطريقة إنشاده؛ فهذا الجمهور يضم شرائح متنوعة ومتناقضة تشمل كل درجات السلم الاجتماعي والثقافي، إلا أن القاسم المشترك بينه هو الإحساس العميق بالكلمة، والإحساس بالشيء نصف فهمه.

نصفه الآخر

أما النصف الآخر للفهم فيأتي من المشاركة في الغناء كجزء من "الحالة"؛ لذلك لهذا المنشد المبتهل جمهورًا كبيرًا في حفلاته بالبلاد الأجنبية من خلال مهرجانات الموسيقى الروحية، على الرغم من أن الغالبية العظمى من الحضور في هذه الحفلات كانوا أجانب لا يعرفون العربية، فضلًا عن صعوبة فهمهم لمعاني الشعر الصوفي، إلا أنهم في حضورهم تجدهم هائمين يغلب عليهم التركيز والإنصات؛ فهم لا يبحثون في معنى ما ينشده بقدر ما يحسونه ويشعرونه.

وعن علاقته بهذا الجمهور، فالفاعلية هي عنوان هذه العلاقة، تلك التي تصنع خصوصيته، أو ما يسميه بالحالة التي يشاركه فيها الجمهور بالإنشاد أقرب إلى جلسات العلاج النفسي أو رحلات السمو الروحاني؛ لذلك يخشى المطربون من الغناء معه أو بعده؛ لأن طريقته تجذب الجمهور وترهقه، وتسيطر عليه تمامًا طوال

عدة ساعات تحول دون إمكانية تواصله مع من يأتي للإنشاد أو الطرب بعده، ولهذا السبب دائمًا ما ينشد منفردًا أو في نهاية الحفلات.

أما القصائد والأناشيد، التي يحرص ياسين التهامي على إنشادها فيأتي معظمها من قصائد وأشعار المتصوفة، التي تربطه بها علاقة عشق، خاصة وإنه ولد وتربى في أجواء التصوف، وشب على حلقات الذكر، وممن ينشد لهم عبد القادر الجيلاني وعبد الكريم الجيلي والحلاج ومحيي الدين بن عربي وأبو معين الغوث وعمر بن الفارض الذي أنشد تائيته الشهيرة ذو الخمسمائة وسبعة وثلاثين بيتًا، وذلك على مختلف مراحل عمره الفني المختلفة، الذي قارب الثلاثين عامًا، فهو لا يخرج عن عيون الشعر الصوفي إلا نادرًا.

وإذا ما أنشد لغير المتصوفة فيكون إنشاده للشعراء أصحاب ذات نفس الروح والمشاعر والعاطفة القوية؛ مثل: الأمير عبد الله الفيصل وعبد الله البردوني وعلي عبد العزيز وأحمد شوقي وعلية الجعار والأخطل الصغير، وطاهر أبو فاشا، ومن القدماء المتنبي وأبو فراس الحمداني ورابعة العدوية؛ فالمبدأ عنده هو روح القصيدة وليس شخص صاحبها.

يوسف إسلام

منشد القيم الإسلامية

القول بقصر فن الإنشاد والابتهال على لغة واحدة أو ثقافة مجتمعية دون غيرها، أمر عار من الصحة، وإن كان الاعتراف بدور أبناء حضارة أو لغة أو ثقافة أمر لا اختلاف فيه، فالإنشاد الديني كانت بدايته على أيدي مجموعة من الصحابة – رضي الله عنهم – في عهد الرسولﷺ ، ثم مجموعة من التابعين ؟ رحمهم الله – الذين تغنَّوا بالرسول وخصاله وأفضاله، وكانت قصائد "حسان بن ثابت" – شاعر الرسول ﷺ هي المَعين الذي لا ينضب بالنسبة للمنشدين، ثم تغنَّوا بقصائد أخرى لغيره من الشعراء الذين كتبوا في موضوعات متنوعة منها: الدعوة إلى عبادة الله الواحد، ومنها ما يدعو إلى التمسك بالقيم الإسلامية وأداء الفرائض من صلاة، وزكاة، وحج إلى غير ذلك.

هكذا النشيد الديني هو كل نظم للكلمات يهدف خدمة الدعوة إلى الإسلام سواء كان هذا النظم باللغة العربية أو غير العربية ما دام الهدف واحد، فها هو الشيخ يوسف إسلام أحد دعاة الإسلام في الغرب اعتمادًا على فن الإنشاد الإسلامي، هذا الرجل الذي ينظر له كرمز دعوي في بلاد الغرب.

هو الشاب الإنجليزي "ستيفن جورجيو" الذي كان يلقب بـ"ملك موسيقى الروك آند رول" في بريطانيا، الذي دخل الإسلام بعد تيهة طويلة في ظلمات الشرك دامت قرابة ٢٨ سنة، فكان دخوله الإسلام إضافة خاصة وأن دخوله لم يكن إلا عن قناعة،

بعد أن أوشك على الغرق في صيف عام ١٩٧٥، عندما واجه دوامة شديدة ظهرت له فجأة، ومن ثم شعر بضعف شديد جعله غير قادر على الاحتفاظ بتوازنه في الماء في الوقت الذي لا يجد أحدًا قريبًا منه يمكن أن يساعده، فينادي في مشهد درامي مؤثر بأعلى صوته لعل أحدًا ينقذه لكن من غير جدوى، إلا أنه حين أوشك على الغرق صرخ بأعلى صوته: "يا رب.. لئن أنقذتني فلسوف أعمل من أجلك شيئًا"، وبالفعل استجاب الله لدعائه، ونجاه من ضره، وبرا بوعده لم يمكث كثيرًا حتى أعلن إسلامه وصار يوسف إسلام أشهر دعاة الإسلام في الغرب الآن.

الميلاد والنشأة

ولد ستيفن جورجيو في ٢١ يوليو ١٩٤٧ بلندن في بيت مسيحي متعدد المذاهب، فقد كان أبوه يونانيًا أرثوذكسيًا، بينما والدته سويدية كاثوليكية، في الوقت الذي يعيش فيه المجتمع البريطاني طبقًا لتعاليم الكنيسة الإنجيليكانية، أدخلته أمه مدرسة دينية تعلم فيها أن الإنسان يمكن أن يصير إلهًا إذا أتقن عمله، فشجعه هذا على إجادة الغناء؛ إذ إنه سجل ٨ شرائط قبل أن يبلغ العشرين من عمره، ووصلت إحدى أغنياته ضمن أفضل ١٠ أغنيات في بريطانيا آنذاك، فغيّر اسمه إلى كات ستيفنز، وهو الاسم الذي ذاعت به شهرته، وأصبح يحلق في آفاق أوروبا كلها في ستينيات القرن الماضي، ولم يكن قد تعدى الثانية والعشرين من عمره بعد.

أصيب ستيفنز عندما أتم عامه الثاني والعشرين بمرض السل، الذي أقعده في الفراش معزولًا عن الناس في أحد المستشفيات لمدة عام تقريبًا، لتكون هذه العزلة فرصة له للقراءة في كتب الفلسفة والتصوف الشرقي، هذه القراءة التي دفعته للبحث عن الطريق إلى اليقين الروحي؛ إذ كان يشعر بأن حياته بها شيء غير مكتمل على الرغم من النجاح الذي حققه، وفي النهاية قرر أن يعود إلى الغناء، ولكن بمفاهيم

جديدة تتسق مع ما قرأه في أثناء المرض، وبالفعل حققت أغنيتاه "الطريق لمعرفة الله"، و"ربما أموت الليلة" نجاحًا كبيرًا زاده حيرة.

وأثناء هذه الفترة، قرر ستيفنز المسيحي أن يطرق باب البوذية ظنًا منه أن السعادة هي أن تتنبأ بالغد لتتجنب شروره، فصار قدريًا وآمن بالنجوم وقراءة الطالع، ثم انتقل للشيوعية ربما يجد فيها ما يبحث عنه وظنًا أن السعادة هي تقسيم ثروات العالم على الجميع، إلا أنه شعر أنها لا تتفق مع الفطرة، وهروبًا من الشك الذي يراوده والإرهاق النفسي والعقلي اتجه إلى تعاطي الخمور والمخدرات ليقطع هذه السلسلة الصعبة من التفكير بعد أن أدرك أنه ليست هناك عقيدة توصل إلى اليقين، وعاد مرة أخرى إلى تعاليم الكنيسة، التي أخبرته أن الله موجود ولكن يجب أن تصل له عبر وسيط، فأدى هذا به إلى أن يختار الموسيقى دينًا له يفرغ فيها أفكاره ومعتقداته.

دخول الإسلام

ولكن جاء حادث الغرق ومرضه بالسل ليتصادف مع عودة أخيه من رحلة زار فيها القدس، وأحضر فيها له من هذه الأراضي هدية، وكانت عبارة عن نسخة مترجمة من معاني القرآن الكريم، فأمسك بالمصحف على الفور ليجده يبدأ باسم الله، ولا يوجد اسم مؤلف على غلافه، وبدأ في قراءة هذا الكتاب محاولًا البحث عن ثغرات فيه، ولكن هيهات أن يجدها فهو كلام الله المنزه عن الخطأ، بل وجده منسجمًا مع الوحدانية الخالصة؛ وهنا كانت بداية معرفته بالإسلام، وقرر السفر إلى فلسطين، ودخل المسجد الأقصى فأحس بالطمأنينة، وعندما رجع إلى لندن التقى بفتاة مسلمة صرح لها برغبته في إشهار إسلامه.

أخذت هذه الفتاة المسلمة هذا الشاب الباحث عن الحقيقة إلى المركز الثقافي الإسلامي بلندن، وهناك نطق بالشهادتين وأعلن إسلامه، وفي تلك اللحظة طوى

الشاب الإنجليزي صفحة "كات ستيفنز" تمامًا، وأصبح يعرف باسم "يوسف إسلام"، وبدخوله الإسلام اعتزل يوسف إسلام الموسيقى الصاخبة، ورأي أن يستغل موهبته التي أعطاه الله إياها في خدمة الدعوة إلى الله فقام بتسجيل عدد كبير من الأناشيد الدينية، التي ألفها بالإنجليزية مع تطعيمها بكلمات وجمل عربية لإكسابها روحًا إسلامية عذبة، فبدأ منذ ١٩٩٣ في تسجيل مجموعة من الألبومات تجاوز عددها الآن عشرة ألبومات، وحرص في تلك الألبومات على إيصال قيمة ومفهوم الإسلام للمسلمين وغير المسلمين؛ إذ تضمنت هذه الشرائط أناشيد وأغنيات دينية ذات محتوى تثقيفي تعليمي. وبالدخول إلى الإسلام بدأت رحلة يوسف إسلام الدعوية، ولكنها رحلة تتفق ومواهبه وميوله فالإنشاد الديني هو طريقه الذي يجيد دروبه، وبدأ المشوار بتقديم أول ألبوماته الإسلامية كمنشد، وكان هذا الألبوم بعنوان "حياة آخر الأنبياء"، والذي روى فيه القصة الكاملة لحياة الرسول، كما تضمن أغنية "طلع البدر علينا"، وتلاه بالألبوم الثاني عام ١٩٩٧م، وبالإضافة إلى هذين الألبومين سجل يوسف إسلام عددًا من الأغنيات الإسلامية للأطفال من أشهرها "هذا من أجل الله" التي تحولت إلى نشيد رسمي في عدد كبير جدًّا من المدارس الإسلامية في بريطانيا، وقدم بعدها أغنيتين مع فريق الأناشيد الماليزي "ريحان"، وهما، "الله هو النور"، و"خاتم الرسل".

وسيلة صالحة

في لقاءات عديدة له، أكد يوسف إسلام أن الإنشاد الديني وسيلة صالحة لمحاربة الموسيقى الفاسدة؛ لأنه من غير الطبيعي أن يُمنع الناس من الترفيه والاستمتاع بأوقاتهم، وأنه إذا كنا نرى السوء في بعض الأشياء، فعلينا مهمة توفير البديل الحلال ليستمتعوا به؛ موضحًا أنه يحرص دائمًا على أن تكون أناشيده الدينية على نفس المستوى الفني والتقني لألبوماته السابقة حتى لا ينفر منها أحد.

وفي سبتمبر ٢٠٠٢ م، افتتح يوسف إسلام مقررًا إقليميًا لإحدى كبريات شركات التسجيلات والإنتاج الإعلامي ذات التوجه الإسلامي في دبي، في خطوة

استهدفت تعزيز نشاط الشركة في منطقتي الشرق الأوسط والأقصى، وتعمل هذه الشركة في مجال إنتاج المواد الإعلامية المسجلة على أسطوانات مدمجة، وأشرطة الفيديو، بجانب طبع الكتب والمؤلفات الخاصة بشرح ثقافة وقيم الإسلام، كما ركز بكل السبل على إيصال صوته إلى الأطفال انطلاقًا من أن المجتمع الغربي مبتلى بحوادث عنف وقتل يقوم بها الأطفال، بسبب عدم ترسيخ روح الإيمان بالله في نفوسهم منذ الصغر.

لذلك حرص المنشد يوسف إسلام على تخصيص شريطًا للأطفال يعرفهم فيه بالله، وسماه: (A is for ALLAH)، وأرفق مع الشريط كتيبًا صغيرًا كتب فيه: "إن الطفل الغربي يتعلم منذ اليوم الأول: (A is for Apple) ولكنني أريده أن يتعلم منذ الحرف الأول: (A is for ALLAH)؛ الأمر الذي سينعكس عليه في المستقبل"، ورغم اهتمام يوسف إسلام بأمور المسلمين المختلفة فإن جل اهتمامه انصب على التعليم، الذي رآه البداية الحقيقية لتكوين جيل مسلم في أوروبا، فبدأ اهتمامه بالتعلم الإسلامي عام ١٩٨٣ عندما أصبح رئيس وقف المدارس الإسلامية ببريطانيا؛ فأسس المدرسة الابتدائية الإسلامية تحت اسم "إسلامية"، ثم المدرسة الثانوية الإسلامية للبنين والبنات في شمال لندن –وهما أول مدرستين إسلاميتين بريطانيتين–، ثم طالب الحكومة البريطانية بتخصيص ميزانية للمدارس الإسلامية أسوة بالمبالغ التي تخصصها الحكومة للطوائف الدينية المسيحية واليهودية.

ورغم أن الحكومة لم تستجب لطلب يوسف إسلام آنذاك فإنه لم ييئس، بل استمر في حملته إلى أن وافقت حكومة بلير السابقة على تخصيص ميزانية لدعم المدارس الإسلامية ببريطانيا، وليس هذا فحسب بل نجحت حملته في دعوة الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا إلى زيارة إحدى المدارس الإسلامية بلندن، والذي امتدح تلاميذها قائلًا: "أنتم سفراء تقدمون المثل لأحد الأديان السماوية وهو دين الإسلام"، ولم يقتصر عمله الدعوى على الأناشيد والتعليم الإسلامي، بل عكف على إدارة عددًا

لا بأس به من المؤسسات الخيرية الإنسانية، مثل مؤسسة "العطف الصغير" التي تقدم خدماتها في مجال رعاية الأطفال وضحايا الحرب في منطقة البلقان، وجمعية "عمار المساجد" الدينية بجانب تأسيسه لعدد من الحلقات الدراسية للمسلمين الجدد في بريطانيا.

معترك السياسة

ولأنه كان معروف عنه بغضه الشديد للحروب والدمار والقتل، دخل يوسف إسلام معترك السياسة وأصبح داعية سلام عالميًا؛ فنتيجة لنشاطه وثقل مركزه العالمي قبلت الحكومة العراقية وساطته أثناء اندلاع حرب الخليج الثانية ١٩٩١، وأفرجت عن ٤ أسرى إنجليز، كما وافقت الحكومتان السعودية والكويتية على إقامة مخيمات سلام على حدودهما لفريق من دعاة السلام على رأسهم يوسف إسلام، وقام بالعديد من الزيارات إلى البوسنة، وعقد العديد من الحفلات الدينية في سراييفو، وألّف ألبومًا سياسيًا عن مأساة البوسنة أسماه بـ "ليس لدي مدافع هادرة" في ١٩٩٧.

كان المنشد يوسف إسلام يزور القدس في عام ٢٠٠٠ لتصوير فيلم تليفزيوني عن الأماكن التي زارها في مقتبل حياته الإسلامية، فكانت فرصة من الساسة الإسرائيليين لممارسة المنهجية ضده كمسلم وداع صلب لهذا الدين، حيث رفضت السلطات الصهيونية دخوله إلى القدس، بل واحتجزته في زنزانة صغيرة بلا ماء أو خدمات قبل أن يتم ترحيله إلى ألمانيا، وكان حجة الإسرائيليين أنه يخصص جزءًا من عمله الخيري لصالح حركة حماس؛ الأمر الذي أنكره بدوره، متساءلًا: "هل تقديم الأموال ليتامى الفلسطينيين دعم لحماس؟!". وإزاء الحملة الشرسة التي تعرض لها الإسلام منذ هجمات ١١ سبتمبر حرص يوسف إسلام على حضور الندوات الدينية في شتى أنحاء العالم، وأكد فيها على سماحة الدين الإسلامي وبراءته من التهم الموجهة إليه جزافًا، وعلى الرغم من مشروعية اهتمامه بالسياسة، فإنه كان يهتم بعدم

إعلان ذلك حتى لا تتضرر المؤسسات الخيرية التي يديرها من وراء ذلك، أو أن يتم إيقافها بدعوى دعمها للإرهاب كما حدث مع مؤسسات أخرى عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وفي السادس من مارس ٢٠٠٣ وقبيل الحرب الأمريكية على العراق، أصدر يوسف إسلام توزيعًا جديدًا لأغنيته "قطار السلام" التي استخدم فيها الدفوف والإيقاعات النحاسية، وجاءت لتعلن موقفه الرافض للحرب على العراق، ويعلق عليها بقوله: "كتبت قطار السلام ضد الحرب لتصل رسالتها لقلوب الملايين، وتلبي حاجة كبرى للناس، لكي يشعروا بأن ثمة أملًا يتزايد؛ فأنا كإنسان وكمسلم أشعر أن هذا هو إسهامي في الدعوة للحل السلمي".

جديرا بالذكر أن المنشد يوسف إسلام متزوج ولديه ٥ أولاد؛ حرص على تعليمهم تعليمًا إسلاميًا بجانب التعليم النظامي الإنجليزي، دخل أخوه الإسلام مبكرًا، أما أبوه فقد أسلم قبل وفاته بيومين.

يوسف المنيلاوي

أحد رواد مدرسة موسيقى الشيوخ

مع نهاية القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، حدثت انتفاضة غنائية عربية في مصر، حيث حرّرت الموسيقى العربية من هيمنة الموسيقى الفارسية، والغجرية، وأسهم فيها الشيوخ عبده الحامولي، سلامة حجازي، السفتي، المنيلاوي، سيد درويش، هؤلاء أرسلهم ذووهم ليتعلّموا القراءة في الكتّاب عند مشايخ لا يجيدون سوى قراءة القرآن، وتجويده، ومن يسعفه الحّظ منهم ويفلح في حفظ ما يلقّنه له شيوخ الكتاتيب وينتقل إلى القاهرة، ليتعلّم في الأزهر ويتخرّج شيخًا معممًا.

كّل هؤلاء الذين ارتقوا بالموسيقى العربية، والذوق الفنّي العربي، هم معممون، رجال دين أتقياء لم يروا في الغناء فسقًا وخروجًا على أصول الدين، وهم عادوا إلى المقام العربي، وأصّلوا للموسيقى العربية، واستعادوا الموشّح بمفرداته الراقية، وموسيقاه الطربية، وهكذا لم تكن رحلتهم سهلة، فهم مرّوا في ظروف صعبة، وأحيانًا هجروا بيوت ذويهم وهاموا في الشوارع إلى أن وجدوا من يؤمّن لهم العمل ولقمة العيش الكريم، ويفتح أمامهم الأبواب لتعريف الجمهور المتلهّف بهم، حكاياتهم عجيبة أحيانًا في العشق، وفي الحياة وتصاريفها.

وهذه سيرة أحد رواد هذه الفترة، الشيخ يوسف خفاجي المنيلاوي المولود عام ١٨٥٠ بمنيل الروضة القاهرة، وكان والده يعمل فلاحًا بالزراعة، تقيًا ورعًا، وكان من المعروف عنهم الصلاح والتزام المساجد والحرص على طاعة الله بالتقرب بكل صور

الطاعات، ولذلك كان حريص على إلحاق ولده بأقرب مكتب لتحفيظ القرآن، لكي يؤهله للالتحاق بالأزهر الشريف، الذي طالمًا حلم بأن يرى ولده أحد رمز هذه المؤسسة الدينية العريقة، فكثيرًا ما كان يحدث زوجته أنه سوف يبذل كل جهده ليكون يوسف أحد علماء الدين الأزهر الشريف.

صوت رخيم

لكن يوسف المنيلاوي قد أحب الإنشاد الديني، وخاصة سماعه للشيخ المسلوب، والشيخ خليل محرم، ثم ظهر نبوغه في هذا الفن، بالإضافة إلى أنه كان يتمتع بصوت جميل رخيم، وبعد أن اشتهر يوسف المنيلاوي كمطرب ومنشد، وخاصة في غنائه لأدوار محمد عثمان وعبده الحامولي، حيث عاصرهما المنيلاوي في أواخر أيامهما، وبالفعل لم تستطع رغبة والده أن تثنيه عن المضي قدما في مجال الإنشاد والابتهال الديني، وربما وافق والده في نهاية المطاف على هذا الأمر لسببين، أولهما، أنه عكف على الإنشاد الديني وأداء الابتهالات الدينية فرأى أنه بذلك سوف يقدم خدمة جليلة للإسلام، فدور المبتهل أو المنشد لا يقل أهمية عن دور عالم الدين.

أما السبب الثاني الذي أدى بوالد يوسف المنيلاوي للموافقة على دخوله هذا المجال الفني، نصيحة بعض المحيطين له بالموهبة الفائقة التي يمتلكها ولده، وبالتالي سلكه هذا المجال يعني شهرة ومالا وخدمة للإسلام في ذات الوقت، ودور مؤثر في الحياة الثقافية المصرية في هذه الآونة، هكذا وافق والده وبدأ تشجيعه والوقوف وراءه لإدراك التفوق والنجاح في هذا المجال.

تلحين القصائد

هكذا بعد مرحلة من السماع والتقليد والأداء على استحياء، بدأ الشيخ يوسف المنيلاوي في تلحين القصائد، وذاعت شهرته في تلحينها وغنائها، وأصبح قبلة

الأنظار والأسماع في أفق الفن الموسيقى المصري، حتى وصل أجره إلى ١٠٠ جنيه في الليلة، ولما طبعت أغانيه على اسطوانات عام ١٩٠٨ كان يكتب له لقب خاص هو "سمع الملوك".

ومن أهم القصائد الدينية التي غناها الشيخ يوسف المنيلاوي قصيدة "سلطان العاشقين" للشاعر الصوفي الكبير الحسن بن عمرو بن الفارض، وبالرغم من أن المغني أو المطرب في وقته كان غير محترم بين علية القوم، الا أن الشيخ المنيلاوي كان كريمًا عفيف النفس، عالي الهمة، شديد التمسك بكرامته، وكانت له عربة فاخرة يجرها فرسان.

وسافر المنيلاوي إلى الأستانة فأرجز نجاحًا كبيرا، وأعجب به السلطان عبد الحميد فقربه إليه، وكان يصحبه معه في صلاة الجمعة، كما أنعم عليه ببعض النياشين، وكان رغم أرباحه الطائلة عن طريق الغناء، يعمل في تجارة القصدير، وعلى الرغم من ذلك كله لم يترك ثروة ذات قيمة، نظرًا لأنه كان لا يبخل على نفسه في أي شيء.

تراث فني

ترك المنيلاوي تراثًا كبيرًا إلى حد كبير مقارنة بالمعاصرين له، نظرًا لحرصه على تسجيل أغانيه على أسطوانات، كان التسجيل الأول عام ١٩٠٨ مع شركة عمر أفندي، وبعد ذلك بعامين أي في عام ١٩١٠ قامت شركة "جراموفون" بطبع هذه الاسطوانات وتوزيعها على مختلف وكلائها في غالبية الدول العربية، هذه الاسطوانات التي لاقت رواجًا كبيرًا في ذلك الوقت من القرن الفائت. ومن أشهر الأغاني التي سجلها المنيلاوي على الاسطوانات "جددي يا نفس حظك" و"قبل ما هوى الجمال" و"فتكات لحظك" و"حامل الهوى تعب"، ولعل أشهر أغانيه كانت أغنية "البلبل"،

والتي كان إذا طلب منه أصحاب الفرح ما أن يغنيها، اشترط عليهم أن يدفعوا له ٢٠ جنيهًا ذهبيًا فوق قيمة العقد، الذي كان في الغالب ١٠٠ جنيه عن الليلة الواحدة، وهو الأجر الأعلى في هذه الآونة.

كان الشيخ يوسف المنيلاوي من أشهر المغنيين في عصر عبد الحي حلمي، وكان يوسف المنيلاوي ينافس عبد الحي حلمي في الشهرة والصيت، إذ اعتبر بعد موت عبده الحامولي ومحمد عثمان العندليب الأوحد في كل وادي النيل، وكان سامعوه من كبار القوم يؤمون مجلسه فوق تخته الكامل، تحت رئاسة المرحوم محمد العقاد الكبير، الذي ملك ناصية العزف على القانون ومعاونه إبراهيم بهلون الكماني العظيم، وأمين البرزي، وغيرهم. وفي السادس من يونيو عام ١٩١١ رحل الفنان المطرب والملحن الشيخ يوسف خفاجي المنيلاوي بعد أن ترك ذكرى طيبة في عالم الغناء. ففي أسرته نبغت في عالم الغناء السيدة إجلال المنيلاوي من بطلات فرقة أم كلثوم للموسيقى العربية التراثية التابعة للمعهد العالي للموسيقى العربية بأكاديمية الفنون.

الفهرس

مقدمة ٥

المنشد سامي يوسف ٧

أحمد التوني ١٣

أحمد الكحلاوي ١٩

الشيخ أبو العلا محمد ٢٥

الشيخ إمام عيسي ٣٣

الشيخ زكريا أحمد ٤١

الشيخ سلامة حجازي ٤٧

الشيخ سيد درويش ٥٣

الشيخ سيد متولي ٥٩

الشيخ عبد العاطي ناصف ٦٥

الشيخ محمد الهلباوي ٧١

الشيخ محمد عمران ٧٧

محمد محمود الطبلاوي ٨٣

العطواني ٨٩

الفشني ٩٥

"النقشبندي" ١٠١

المبتهل سعيد حافظ ١٠٩
عبد التواب البساتيني ١١٥
كامل البهتيمي ١٢١
الشيخ محمد الطوخي ١٢٩
محمد الكحلاوي ١٣٥
الشيخ محمد جبريل ١٤١
الشيخ محمد صلاح كبارة ١٤٩
الشيخ محمد عبد الهادي ١٥٥
مشاري راشد العفاسي ١٥٩
الشيخ ممدوح عبد الجليل ١٦٧
الشيخ نصر الدين طوبار ١٧٣
ياسين التهامي ١٧٩
يوسف إسلام ١٨٧
يوسف المنيلاوي ١٩٥